ايتالو كالفينو

حدود الأمراليّة

ترجمة: ياسين طه حافظ

دار المأمون
Dar Al-Ma'mun

مكتبة الفكر الجديد

ايتالو كالفينو

مدن لامرئيه

Italo Calvino

INVISIBLE CITIES

Translated from the Italian by **William Weaver**

مكتبة
الفكر
الجديد

مدن لامرئيه

ايتالو كالفينو

ترجمة

ياسين طه حافظ

دار المأمون للترجمة والنشر
Dar Al-Ma'mun
For Translation & Publishing

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

كالفينو ومدن لامرئيه

إيتالو كالفينو الذي يدعوه البعض بـ «الساحر» ويسميه الآخرون بـ «الخرافي» وتقول عنه عبارات النقد التقليدي «البارع، متعدد الأساليب» و «له لغة في اللغة».

مهما كانت دقة او صحة هذه التعابير، فايتالو كالفينو واحد من الكتاب القلة البارزين. كاتب صار معروفاً بطريقته الجميلة المربكة في الكتابة، وبدهائه في ذلك. لا تقرأ له صفحات حتى تقرَّ ببراعته.

شيء آخر عن كالفينو قد يفيد في كشفه: إيتالو كاتب بالايطالية. لغته، بمعنى آخر لغة نفسه وفكره ومشاعره. يجيد الفرنسية ويكتب بها، لكنه لايكتب بها إبداعاً، الابداع يكتبه بالايطالية، لغته. يجيد الانكليزية ويكتب بها رسائل وردوداً ومقالات، لكنه لايكتب أدباً بالانكليزية، يكتب الأدب بلغته الايطالية. هي أكثر حميمية، اكثر حرارة وياتمنها على روحه واسراره. وايضاً هو لايكتب بالاسبانية اللغة الرابعة التي يجيدها. الإيطالية للكتابة.

روايات كالفينو مشوّقة، والقارىء يواصل قراءة القصة بعد ان يجد نفسه في خضم من المفاجآت المتتالية وقد شدّه عالم زاخر بالوهم والغموض، لكنه قبل هذا يجد فيه شيئاً يعنيه، نداء خاصاً لنقاط بعيدة غافية او لمسالة منتظرة في ذهنه. هذا هو شان كل كتب كالفينو يظل فيها القاريء يبحث عن الغرض، عن المغزى الذي يطرحه أو يريده الكاتب وهو يسعى وراء

مكتبة الفكر الجديد

المعاني البعيدة التي يلفها الغموض، والتي هي «خفيّة» وهي قريبة أيضاً من نفسه.

كالفينو، كاتب واثق بنفسه، مؤمن بقيمة الادب الادبية، بالجمالية العالية. هو واحد بين بورخيس ونابوكوف. مختلف عنهما، وينظر لهما، وينظران إليه، باعجاب.

قال كالفينو مرة:

«إن للقارىء كل الحرية في تفسير قصصي كما يشاء، او الاّ يبحث عن تفسير لها إطلاقاً ويقرؤها من أجل المتعة وحدها، إن هذا موقف يسرني....»

وقال كالفينو مرة:

«اتفق معكم على أن كتبي قد تفُسر من وجهات نظر مختلفة، فقد تفُسَّرُ في ضوء الوجودية، او البنيويه، او المفاهيم الماركسية او الكانتية الحديثة او الفرويدية أو مذهب يونغ، بالرغم من كل هذا يسرني عدم وجود مفتاح واحد لفتح جميع اقفال قصصي وحل رموزها.»

لا أعرف كاتباً آخر استخدم الاساطير للحديث عن العصر، واستخدم الوهم للحديث عن الواقع واشار بالمفردة السائبة للحقيقة، مثل ايتالو كالفينو. الخيال والوهم والاسطورة ثلاثة ينابيع يسقي بها معاً حقله الادبي.

لايتالو كالفينو:

قصة آدم، ذات ظهيره

ماركو فالدو

الفارس اللاموجود

أجدادنا.

مكتبة الفكر الجديد

إذا مسافر في ليلة في شتاء
مدن لامرئية
قلعة المصائر المتقاطعة
في الطريق الى بيت العنكبوت
البارون في الاشجار

واخر كتبه في ١٩٨٥:
بالومار

يقول كالفينو: عندما ابدأ بكتابة شيء جديد افعل ذلك وكانني لم اكتب شيئاً من قبل..»

هذا هو السر إذن. هذا سبب ان لكل كتاب من كتبه اسلوبه، ويجمع بينها جميعاً روح واحد هو روح كالفينو، ذلك الايقاع السري الدائم المشترك.

من اعماله، يمكن ملاحظة انه مرّ من الخرافة الى القصة. وطول هذاالطريق هوالذي يشغل ذهن الانسان النبيه وفكره بالشكوك والتساؤلات والرؤى الجديدة للاشياء القديمة، وباسلوب بهيج ممتع.

يقولون: ان اهمية كالفينو تتاتّى من قدرته على إعادة صياغة الموضوعات الادبية القديمة، بصيغ جديدة. هذا الامر يجعل من الاعتيادي والقديم، مثيراً ومعاصراً. وان البحث عن السر وراء الاشياء القريبة البسيطة لا بقصد تعليله، ولكن لمجرد الاقتراب منه، لوصفه، للتلذذ بوصفه..

بالومار، كتابه الاخير، تقارير جميلة، كتابات وصف، دفتر بيوغرافيا لانسان يحاور الاشياء المحيطة به ويحاول الاقتراب

مكتبة الفكر الجديد

الى سرها. «وهكذا فهو يتامل الغروب، وينظر الى النجوم والى الحيوانات في حديقته ثم يقول لنا جملته الاخيرة بعد ان مسّه اليأس:

«نحن لانستطيع ان نتامل ما تعودنا على رؤيته في داخلنا...»

هذا هو كالفينو في بالومار، الكتاب الاخير، وهو هو كالفينو في كتبه الاولى... يظل خرافيا!

و «مدن لامرئية» الذي اخترت ترجمته، هو اول كتاب: «... لايتالو كالفينو واثار دهشتي، رواية، نعم رواية! هكذا يقول النقاد، تثير المشاكل نفسها التي اثارها الكاتب من قبل، ولكن باسلوب مختلف وبايجاز جميل ومذاق فيه العمق الثقافي ونكهة الشرق البعيدة والمؤثرة.

ففي هذه «الرواية» نرى قبلاي خان يراقب امبراطوريته، فيراها تتعاظم وتتباعد اطرافها، وهي متماسكة، مثل ماسة صلدة لمّاعة، واقفة في الزمان مثل صرح شامخ... انما هو في حاجة الى الاقتناع الاخير، الى السر الذي يتوق لمعرفته، لكي يتاكد، لكي يقتنع. لكن المدن التي يراها ماركوبولو في هذه الامبراطورية، مدن حصينه لايمكن غزوها، لايمكن ان تُقْهرَ. هي مدن ظاهرها رموز، مدن خفية لاترى. والغريب فيها انها تفتقر الى الصلابة، الى المادة في تكوينها هي مدن أشكال واصوات وحركات. مدن تشعر بوجودها ولاتراها. مدن تستحضر في الاذهان رؤى ارواح من سجون البيرنيس، مدن تعجُّ بهمس المقابر والوشوشة!

كما ان هذه المدن اللامرئية توحي بحالات ووقائع حصلت في الماضي يستحضرها القاريء ويتخيلها، مثلما هي صورة

مكتبة الفكر الجديد

لفينيسيا متعددة الاشكال كما تخيلها الرحالة ماركوبولو، او لعلها مجرد تشبيهات واستعارات، قلْ عنها ماشئت دون حرج فهناك توافق تام بين الصورة والفكرة في كل حالة من الحالات في (الرواية). لذا فكل التغيرات والتاويلات ممكنة، والافضل ان تظل جميلة دون تفسير نهائي، كما يتمني الكاتب ان تكون..

الجملة الاخيرة التي اقولها وانا اقدم هذا الكتاب: «مدن لامرئية»: انها خطاب قديم عميق لنا في هذا العصر. كتبه معاصر مهذب وشديد الحزن.

ياسين طه حافظ

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

المحتـــوى

١

مدن وذاكرة ١

مدن وذاكرة ٢

مدن ورغبة ١

مدن وذاكرة ٣

مدن ورغبة ٢

مدن وعلامات ١

مدن وذاكرة ٤

مدن ورغبة ٣

مدن وعلامات ٢

مدن خفاف ١

٢

مدن وذاكرة ٥

مدن ورغبة ٤

مدن وعلامات ٣

مكتبة الفكر الجديد

مدن خفاف ٢

مدن تجارية ١

. . . .

٣

. . . .

مدن ورغبة ٥

مدن وعلامات ٤

مدن خفاف ٣

مدن تجارية ٢

مدن وعيون ١

. . . .

٤

. . . .

مدن وعلامات ٥

مدن خفاف ٤

مدن تجارية ٣

مدن وعيون ٢

مدن وأسماء ١

. . . .

٥

. . . .

مدن خفاف ٥

مكتبة الفكر الجديد

مدن تجارية ٤

مدن وعيون ٣

مدن واسماء ٢

مدن والموتى ١

٦

. . . .

مدن تجارية ٥

مدن وعيون ٤

مدن وأسماء ٣

مدن والموتى ٢

مدن والسماء ١

. . . .

٧

. . . .

مدن وعيون ٥

مدن واسماء ٤

مدن والموتى ٣

مدن والسماء ٢

مدن مستمرة ١

. . . .

مكتبة الفكر الجديد

٨

مدن وأسماء ٥

مدن والموتى ٤

مدن والسماء ٣

مدن مستمرة ٢

مدن مخفية ١

٩

مدن والموتى ٥

مدن والسماء ٣

مدن مستمرة ٣

مدن والسماء ٤

مدن مستمرة ٤

مدن مخفية ٣

مدن مستمرة ٥

مدن مخفية ٤

مدن مخفية ٥

مكتبة الفكر الجديد

١

مكتبة
الفكر
الجديد

لايصدق قبلاي خان كل شيء يقوله ماركو وهو يصف له مدناً زارها في تطوافه لكن امبراطور التتار استمر على الاصغاء لابن «البندقية» الفتي بانتباه وتطلع اكبر مما ابداهما لأي رسول آخر جاءه اومكتشف وصله.

في حيوات الأباطرة، يلي الزهو بالمدى الشاسع للأقاليم التي اقتحمناها، ويلي الهياج والانتعاش اللذين تمنحهما لهم معرفتهم وفهمهم، حس بالفراغ ياتينا في المساء مع رائحة الفيلة بعد المطر ورماد شجر الرمل يبرد في المواقد، ودوار يجعل الانهار والجبال ترتجف على منحنيات نصف الدائرة الأسمر للارض امام أبصارنا وتتدحرج الجبال الواحد بعد الآخر. اخبرنا الرسل بالدمار الذي أصاب طوابير الاعداء من هزيمة الى هزيمة. اهلكوا قوات الملوك المجهولين الذين اغاروا على مواقع جندنا، فدفعوا مقابل ذلك، اتاوات سنوية من المعادن الثمينة والجلود المدبوغة وتروس السلاحف. انها لحظة أسىٰ تلك التي اكتشفنا فيها ان هذه الامبراطورية، التي كنا نظنها مجمع كل العجائب خراب لاشكل له ولا حدود.. والنصر على الاعداء جعلنا ورثة بطالتهم الطويلة ولقد تبين لقبلاي خان الأمر خلال الجدران والابراج المشققة. اشكال الزخرفة البارعة، وحدها التي سلمت فلم يأكلها النمل الابيض.

مكتبة الفكر الجديد

مدن وذاكرة ١

حين تغادرُ مكانك وتسيرُ ثلاثة أيام نحو الشرق، تصل ديوميرا مدينة بستين قبّة من فضّة وتماثيل من برونز لجميع الآلهة. شوارع مرصوفة بالرصاص، ومسرح من الكريستال وديكٌ ذهبي يصيحُ على البرج كل صباح.

كل هذه الأشياء الجميلة ستكون مالوفةً للزائر الذي ربما شاهدها في مدن اخرى. ولكن الميزة الخاصة بالنسبة لمن يصلُ هذا المكان، في مساء من ايلول، إذ تقصر النهارات وتضاء المصابيح متعددة الألوان في ابواب المطاعم ولسمع نداء امراة: «اوو...!» في المدخل، انه سيشعر بالحسد لاولئك الذين يعتقدون بانهم عاشوا من قبل مساء مماثلاً لهذا المساء، ويظنون انهم كانوا في ذلك الوقت سعداء.

مدن وذاكرة ٢

حين يسافر إنسان زمناً طويلاً عبر مناطق موحشة، يشعر بالرغبة في مدينة. في النهاية يصل الى اسيدورا، مدينة لبناياتها سلالم حلزونية تنتهي بقواقع حلزونية حيث تصنع مراصدُ كاملة وكمَامات. حيث الغريب يتردد دائماً بين امراتين تقابلان امراة ثالثة.

حيث معارك الديكة تكبر لتحول منازعات دموية بين الافضلين. كان يفكر بكل هذه الأشياء حيثما رغب بمدينة

مكتبة الفكر الجديد

اسيدورا. هي مدينة هذه الاحلام، مع اختلاف واحدٍ: ان المدينة التي حلم بها كانت تضمُّهُ وهو رجل شاب، وقد وصل الى اسيدورا في شيخوخته.

في الميدان، هنالك جدار يجلس عنده الرجال كبارُ السن، يرقبون الشباب يمرون؛ جلس في صفّ معهم. الرغباتُ الآن ذكريات.

مدن ورغبة ١

هنالك طريقتان لوصف مدينة دوروثا: يمكنك القول ان ابراج الالمنيوم الاربعة الطالعة من بين جدرانها، تحمل سبعة ابواب مع جسور متحركة تعمل بنوابض تمتد فوق الخندق الذي يزوّد بالماء اربع قنوات خضر تجتاز المدينة، تقسمها الى تسعة اقسام، كل واحدٍ بثلثمائة دار وسبعمائة مدخنة.

ويرد في الذهن، ان البنات البالغات في كل قسم يتزوجن شباب الاقسام الاخرى ووالدوهم يتبادلون البضائع. فتحمل كل عائلة مما تدّخره من البرغموت وبيوض الخفش، اسطرلابات واحجار كريمة ـ يمكن إذن ان تبدا من الحقائق التالية حتى تعرف كل شيء تريده عن المدينة في الماضي والحاضر والمستقبل.

اولاً، ستقول لي مثلما قال قائد الجمل الذي حملني الى هناك:

وصلت هنا في اول شبابي، في صباحٍ ما، كثير من الناس كانوا يسرعون، وتشهد مباشرة ثلاثة جنود على منصة يعزفون بابواقهم، وكل العجلات تدور حول تلك المنصة، وتخفق اعلام ملوّنة في الريح.

مكتبة الفكر الجديد

قبل هذا، كنت عرفت الصحراء وحدها، وطرقَ القوافل.
في السنين التي أعقبت، استدارت عيناي لتتأملا آماد الصحراء ودروب القوافل، لكني الآن، أعرف ان هذا الممرَّ هو الوحيد الذي فُتِحَ لي من الممرات الكثيرة التي لاحت أمامي ذلك الصباح في دوروثيا.

مدن وذاكرة ٣

سدى ياقبلاي كبير القلب، سأحاول وصفَ زائيرا، مدينة الحصون العالية. يمكن أن اخبرك كم خطوةٍ تصعدُ إذ تعلو الشوارعُ مثل سُلَم، وبالدرجة التي تنحني فيها الاركادياً، وايُّ نوعٍ من الواحِ القصدير تغطيّ السطوح. لكني اعلم: إن قلت لك هذا فكأني لم أقلْ لك شيئاً.
المدينة لاتتكون من هذا، ولكن من العلاقات بين مسافات فراغها وأحداث ماضيها:
بين ارتفاع عمود النور والبعد من الأرض تتارجح فوقها قدما المغتصب المشنوق، بين الخط الممتد من عمود النور الى الدرابزون المقابل، وحبال الزينة والاعلام التي تجمل طريق الملكة، بين ارتفاع حبل الزينة ذاك، وقفزة الزاني الذي تسلق فوقه في الفجر، بين انحدار ماء القناة وتقدم القطة خلاله بينما ذلك المغامر ينزلق في النافذة: بين دائرة اللهب والزورق المسلح الذي ظهر فجاة من وراء اللسان الترابي في البحر.

مكتبة الفكر الجديد

محن ورغبة ٢

في نهاية ثلاثة ايام من مسيرك جنوباً، تاتي إلى اناستاسيا، مدينة بقنوات، واحدة المركز، ترويها، وطيارات ورقية في سمائها. ينبغي الآن إدراج الاشياء المفيد شراؤها هنا: يشب، عقيق يماني، حجر اخضر، منوعات من العقيق الابيض، لحم طائر التدرج الذهبي يطبخ هنا على نار خشب الكرز الموسمي ويرش عليه السمسق الحلو.

وان اخبرك بالنساء اللائي رايتهن يستحممن في بحيرة حديقة فيها، واللائي، في بعض الاوقات ـ كما يقال ـ يدعون الغريب ليخلع ثيابه ويطاردهن في الماء.

لكنني لن اخبرك بجوهر المدينة، فما ان يوقظ وصف اناستاسيا الرغبات كل مرة حتى يجبرك على خنقها، وانت حين تكون في قلب اناستاسيا صباحاً، تكون رغباتك كلها قد استيقظت واحاطت بك.

المدينة تظهر لك كلاً، لم تضع منك رغبةُ واحدة، وانك جزء منها. وإذ انت تتمتع بكل مالم تتمتع به، فانك لاتستطيع ان تفعل شيئاً، لاتستطيع إلا ان تسكن في هذه الرغبة، وتكون انت لها محتوى. هكذا هي القوة، احياناً تدعى مؤذية، احياناً حميدة.

هذه اناستاسيا، المدينة الخادعة، تملكك، إن تعمل فيها ثماني ساعات في اليوم كقاطع يشب او عقيق يماني او حجر كريم اخضر، فكدحك الذي يعطي للرغبة شكلاً، ياخذ من الرغبة شكلها، وتظل تعتقد بانك تتمتع باناستاسيا بينما انت عبدها.

مكتبة الفكر الجديد

مدن وعلامات ١

تسير أياماً بين شجر وحجر. نادراً ما تلتمعُ العينَ لشيءٍ، فان لمعت، عندئذٍ فقط تكون قد ادركت ذلك الشيء كعلامة لشيءٍ آخر: اثر في الرمل ينبيء عن ممرّ نمر، مستنقع يعلن عن عرق ماء. زهرة خبازي عن نهاية الشتاء، كل الاشياء الباقية صامتة وقابلة للتغير الا الاشجار والحجار فكما هي.

في الاخير تؤدي بك الرحلة لمدينة تمارا، تخترقها خلال شوارعها الكثيفة بالواح علاماتها، الطالعة من الجدران، العين لاترى اشياء ولكن صوت أشياء، وهذه تعني أشياء أخرى. فالكماشة تعني دار مركب الاسنان، الابريق حانة، المطْرد ثكنة، الميزان بقالاً

تماثيل وتروس تصور اسوداً ودلافين وابراج نجوم: علامة لشيء، من يعلم ماهو؟، علامته دلفين أو برج او نجم. علامات اخرى تحذر مما هو محظور في هذا المكان (دخول الزقاق بعربات، التبول خلف الكشك، الصيد فوق الجسر).

وعلامات لما هو مسموح به (سقي الحمير، لعب البولنغ، حرق جثث الاقارب) وترى تماثيل الآلهة من ابواب المعابد، كل واحد مقرون بدلالته القرن، الساعة الرملية، الميدوز ـ لذا يدركها العابد ويوجه صلاته وادعيته باتجاهها الصحيح.

وإن لم يكن لبناية علامتها او أن لها هيئة ماتدل عليها، فان شكلها الخاص والموقع الذي تشغله في ترتيب المدينة كافيان ليخبرا بمهمتها: بلاط، سجن، دارُ سَكِّ العملة، معهد فيثاغوري أو مبغى.

السلع التي يعرضها الباعة في أكشاكهم قيمتها ليست بذاتها

مكتبة الفكر الجديد

ولكن بكونها علامات لأشياء أخرى: فعصابات الراس المخرمة للامتياز، والمحفات المطلية بالذهب للقوة، المجلدات والحجال للاثارة. نظرتك تستكشف الشوارع كانها صفحات مكتوبة: الشوارع تنطق بما تفكر به، تجعلك تكرر مجراها. وحين تظن انك تزور تمارا، فانك فقط تسجل الأسماء التي تعرّف المدينة بها نفسها واجزاءها. مهما تكن حقيقة المدينة، وما يكون تحت هذا الغطاء الكثيف من العلامات، مما تظهره او تخفيه، فانت تغادر تمارا دون ان تكتشفها.

خارجها تمتد الارض خالية حتى الافق، السماء مكشوفة وسحب متسارعة فيها، تتمعن في اشكال الغيوم التي تكونها الصدفة والريح، وتجهد في إدارك تلكم الأشكال: سفينة شراعية، يد أو فيل...

مدن وذاكرة ٤

بعد ستة انهار وثلاثة سلاسل جبال تنهض زورا. المدينة التي مارآها أحد مرةً ونسيها. هي من تلك المدن التي تتذكرها أبداً. هي تبقي صورة غير اعتيادية بين ذكرياتك. زورا لها مزية البقاء في ذاكرتك نقطةً فنقطةً، وهي تتوالى بشوارعها وبيوتها الممتدة على طول تلك الشوارع، وفي ابواب ونوافذ دورها، وإن لم يمتلك اي من هذه جمالاً خاصاً به او غرابه.

سر زورا. يكمن في الطريقة التي تجري فيها نظرتك على مقاطعها واحداً بعد آخر، كما في النوتة الموسيقية، حيث لايمكن

مكتبة الفكر الجديد

تغيير اي من علاماتها او تحويل مواقعها، حين لايأتي الرجل الذي يحفظ عن ظهر قلب كنف بنيت زورا،النوم ليلاً يمكنه ان يتخيل نفسه يسير في شوارعها ويتذكر النظلم الذي تتبعه الساعة النحاسية، الظلة المخططة لد كان الحلاق، ثم العين ذات النافورات التسع والبرج الفلكي، كشك بائع البطيخ، تمثال الناسك، الحمام التركي، المقهى في المنعطف، الزقاق المؤدي الى الميناء.

المدينة لاتفارق الذهن، هي مثل الدرع او مثل قرص العسل، يقدر اي منا أن يضع في خلاياه الأشياء التي يريد تذكرها، اسماء الرجال المشهورين، الفضائل، الأرقام، اصناف الخضروات والمعادن، تواريخ المعارك، مجاميع النجوم واقسام الكلام.

بين كل فكرة ونقطة من خط الرحلة ألفة او تباين يمكن ان يثبتا ليفيدا كعون آني للذاكرة. لذا فاكثر رجال العالم معرفة اولئك الذين يستذكرون زورا.

لكن، كان عبثاً انطلاقي لزيارة المدينة، فقد حكمت بالبقاء دون حراك وفي حالة ساكنة ابدا، ليكون سهلاً على تذكرها. زورا بهتت، وتهدمت، وزالت، الأرض نسيتها.

٣ محن ورغبة

دسبينا يمكن الوصول إليها بطريقتين، بسفينة او على جمل.

مكتبة الفكر الجديد

المدينة تقدم وجهاً واحداً للمسافر الذي يصلها برّاً، وتقدم وجهاً مختلفاً آخر للذي يصل عن طريق البحر.

حين تلوح لراكب الجمل، في افق الارض، قمم البنايات الشوامخ، وهوائي الرادار ومؤشرات الريح البيض والحمر تخفق، والمداخن تقذف الدخان، يفكر بالسفينة، يعلم ان مايراه مدينة، ولكنه يفكر فيها كمركبة ستنقله بعيداً من الصحراء، السفينة تكاد تبتعد وقد ملأ النسيم الأشرعة، وإن لم تنشر بعد، أو ان مرجلها البخاري يرتج في قمرته الحديد ويفكر بكل الموانيء والتجارة الاجنبية والرافعات تنزل البضائع على الارصفة،وينزل حيث يحل البحارة القادمون تحت أعلام مختلفة مخمورين يتدافعون، ويرى نوافذ الطوابق الارضية المضاءة، في كل نافذةٍ امراة تمشط شعرها.

وفي سديم الساحل يميز البحار هيئة راكب الجمل وهو يتلاشى، سرج مطرز بحافات لماعه بين سنامين، بقعتين، يتقدم ويتموج، يعرف انها مدينة ولكنه يفكر بها كجمل حمولته العالية زقاق خمرٍ وخرج فاكهةٍ مجففةٍ، خمر التمر واوراق التبغ.

وهاهو يرى نفسه في مقدمة قافلةٍ طويلةٍ تستقي الماء في ظلال النخيل المخططة بالشمس، يرى الى قصور ذات جدران سميكةٍ بيضاء، وصالات ارضها من قرميد، حيث الغيد يرقصن حافيات الاقدام يحركن اذرعهن نصف محجباتٍ باقنعتهن ونصف سافرات.

كل مدينةٍ تاخذ شكلها من الصحراء التي تقابلها، وهكذا

مكتبة الفكر الجديد

يرى راكب الجمل والبحار دسبينا: مدينةً حدودية بين صحراوين.

مدن وعلامات ٢

المسافرون الى مدينة زيرما يعودون بذكريات واضحةٍ: زنجي اعمى يصيح في الزحام، مخبول يتأرجح بأفريز ناطحة سحاب، فتاة تمشي وتقود كوجراً من رسنه، واكثر العميان الذين تطرق عصيهم على حجر الكوبلت في زيرماهم سود، وفي كل ناطحة سحاب شخص جن، كل المجانين يقضون ساعاتٍ على الأفاريز، ليس هنالك فرو كوجر لذلك لم تحمله وتتباهى به الفتيات. المدينة ممتلئة: هي تكرر نفسها، فيعلق بعضها في الذهن.

انا ايضاً عدت من زيرما: ذاكرتي تضم مناطيد تطير في جميع الاتجاهات، أمام النافذة: شوارع فيها محلات للوشم ينقشون جلود البحارة، وقطارات تحت الأرض، تسير جماعاتٍ، في الجانب الآخر يقسمون على انهم شهدوا منطاداً يحوم بين قمم العمارات، ورسام وشم يغير الابر والجلود ويعلق النماذج على مصطبته، امراة بدينة تُنسّم لنفسها بمروحتها على رصيف المحطة.

الذاكرة ممتلئة المدنية تكرر علاماتها فهي تبدأ لتستمر.

مدن خفاف ١

إيسورا، مدينة الالف بئر، يقال انها تقوم فوق بحيرةٍ سرية

مكتبة الفكر الجديد

عميقة في كل جهاتها، وحيثما يحفر الناس حفراً عموديةً داخل أرضها: ينجحون بسحب الماء منها، على كل مدى المدينة، دون تجاوزها.

حدها الاخضر يعيد للبصر الخط الأسود لحدود البحيرة المدفونة: ضاحية غامضة تكشف اخرى واضحة، كل شيء يتحرك في الشمس تبعده الموجة الوثابة المحبوسة تحت السماء الكلسية. نتيجة، هنالك شكلان من الدين في إيسورا آلهة المدينة بالنسبة لبعض الناس، تعيش في الاعماق، في البحيرة السوداء التي تغذي جداول تسري تحت الارض. بالنسبة لآخرين، الآلهة تعيش في الدلاء التي تصعد متدلّية من الحبال، تلك والتي تلوح فوق حافات الآبار، وفي القذيفة التي تدمر القناة وبين الشقوق في شبكة السمك. والشيوخ الثلاثة الجالسون على الرصيف يصلحون شباكا، يقص واحدهم على الآخر للمرة المائة قصة الزورق المسلح الذي امتلكه مغتصب العرش، والذي يقول البعض، انه ابن الملكة غير الشرعي القي بقماطة هنالك على الرصيف. هذه موجة ذكريات امتصتها المدينة مثل اسفنجة فكبرت

واي وصف ايسورا كما هي اليوم، ينبغي أن يستميل كل ماضي ايسورا المدينة، على أية حال لاتكشف عن ماضيها، إنما هي تحمله كخطوط الكف. مكتوبا في زوايا الشوارع. في اسلاك النوافذ ، رابزينات السلالم والهوائيات ذات القضبان المشعة. وصواري الاعلام، تقابل ذلك علامات واخيلة محفورة على كل قطعة ونقوش على الإدراج.

مكتبة الفكر الجديد

انطلق مبعوثو خان العظيم وجباة الضرائب لاكتشاف المناطق القصية، ثم عادوا الى كاي بنك والى حدائق منغوليا التي يتمشى في ظلالها قبلاي ويصغي الى تقاريرهم الطويلة. سفراؤه كانوا فرساً وارمناً وسوريين واقباطاً واتراكاً: الامبراطور هو الغريب عن كل تابعيه.

ومن خلال العيون والآذان يمكن ان تثبت الامبراطورية وجودها لقبلاي. في لغات لايفهمها قبلاي، يقدم المبعوثون معلوماتهم التي سمعوها بلغات لايفهمونها. من هذا الابهام، من الصرير الكثير الذي تطلقه النقود المجتباة التي يتسلمها الامبراطور خان، من الاسماء الاولى والاخيرة، اسماء موظفين طردوا واحتجزوا، من ارقام اطوال القنوات التي غذتها الأنهار اوقات الجفاف، يفهم قبلاي مايفهمه ماركوبولو الذي وصل تواً والذي يجهل اللغات اللافانتانيه، يعبر عن نفسه باشارات، بقفزات وصيحات عجب أوفزع وبنباح حيوان أو نعيب، أو بأشياء يخرجها من خرجه الوبري: ريش نعام، أحجار كريمة يرتبها امامه كلاعب شطرنج وفي عودة الرسل الذين بعثهم قبلاي خان، ارتجل الغريب المخلص ايمائية تعني أن العاهل يجب أن يتدخل: احدى المدن صورت بقفزة سمكة فلتت من منقار الغاق لتسقط في الشبكة، مدينة اخرى برجل عار يركض في النار ولا يحترق. ثالثة بجمجمة أسنانها خضر تطبق على لؤلؤه..

الخان العظيم يحل الرموز ولكن الصلات بينها وبين الأمكنة التي زارها بقيت غير مؤكدة. هو لا يعرف مطلقاً ان كانت اسفار ماركو مأثرة لمؤسس المدينة أو نبوءة منجم، رسما ذا معنى، او مقاطع تكشف اسماً. انما هي غامضة كانت او واضحة، اظهرت ان ما

مكتبة الفكر الجديد

عرضه ماركو له قوة الرموز التي اذا شوهدت مرة لاتنسى ولا تلتبس. في عقل خان تنعكس الامبراطورية في صحراء ذات طبيعة متغيرة وغير مستقرة مثل حبات الرمل في ذلك المكان.

وان لكل مدينة ومنطقة الاشكال التي صورتها رموز ذلك الرجل الغريب الآتي من البندقية.

وبمرور المواسم واستمرار الرسل تمكن ماركو من لغة التاتار ومصطلحهم الخاص ولهجات قبائلهم فصارت الآن تقاريره ادق واكثر تفصيلا مما يرغب به الخان العظيم لم يبق هنالك أمر أو شأن لم يأت عليه بتفصيل كاف. كما ان كل معلومة جديدة يقدمها عن مكان صارت تذكر الامبراطور بالاشارة الاولى وبالموضوع الذي اوما اليه ماركو من قبل. الحقيقة الجديدة التي اكتسبها هي واحدة من معاني ذلك الرمز الكثيرة، هو ايضاً، يضيف الى الرمز معنى جديداً. ربما فكر قبلاي ان الامبراطورية ليست غير فلك تدور به اوهام العقل.

سأل قبلاي خان ماركو: «في الأخير، وفي اليوم الذي اعرف فيه كل الرموز، هل سأكون قادراً على امتلاك الامبراطورية؟»

فأجاب رجل البندقية: «مولاي لاتعتقد بهذا. ففي ذلك اليوم ستحول انت رمزاً بين الرموز.»

مكتبة الفكر الجديد

٢

مكتبة
الفكر
الجديد

حذرني السفراء من النساء، ومن الابتزاز والخديعة. فان اتّقيت ذلك، سيخبرونني عن مناجم فيروز اكتشفوها أخيراً، وعن امتيازات اثمان الفراء المصنوعة من ريش الخطاف، واقتراحات للحصول على سيوف دمشقية. سأل الخان ماركو بولو: «وأنت؟ لقد عدت من أماكن تساوي هذه بعداً، وتخبرني بالافكار التي تأتي الانسان الجالس على عتبة بيته في المساء يتمتع ببرودة الهواء. اذن ماجدوى كل أسفارك؟» أجاب ماركو: «الوقت مساء. ونحن نجلس على عتبات بلاطك. يمر علينا نسيم ناعم. فبأي بلد اوحت لك كلماتي، سوف ترى ذلك البلد من نقطة الامتيازات هذه، حتى ان حلت بدل قصرك قرية مهملة في يباس أو حمل النسيم نتانة وحول مصب.»

«ان نظرتي نظرة متأمل غارق في افكاره، أقر بذلك لكن ماذا عنك؟ لقد عبرت ارخبيلات وسهوباً وسلاسل جبال، وتقول الاشياء التي يقولها من لم يبرح مكاننا هذا.»

لقد تعلم ماركو أن الخان اذا ما ناكد او ناقش جليسه فذلك يعني رغبته بمتابعة سير الفِكَر الخاصة لذلك الجليس. لذا اتخذت اجابات ماركو واعتراضاته مكانها في رأس الخان وفي مجري ذاتي خاص. لذا يمكن القول بان ليس مما يهم احدهما أن تقال الاسئلة والحلول بصوت مسموع، او أن يتبادلاها بصمت وقد كانا في الحقيقة صامتين، عيونهما نصف مغمضة، مسترخيين على فراش أرجوحتيهما الشبكيتين، يدخنان بغليونين من الكهرمان.

تخيل ماركو بولو نفسه يجيب او أن الخان تخيل جوابه، بان اكثر الناس ضياعاً في ميادين المدن البعيدة، هو الذي فهم المدن الأخرى التي اجتازها ليصل هناك. والذي يستذكر مراحل رحلته، ويجيء الى

مكتبة الفكر الجديد

الميناء الذي ابحر منه والاماكن التي ألفها في شبابه، وما يحيط ببيته، والميدان الصغير لمدينة حيث كان فيها طفلا يثب مرحاً هناك..

هنا قاطعه قبلاى أو تخيل ماركو أن قبلاي قاطعه او ان ماركو بولو نفسه هو الذي قاطع. بسؤال كهذا: هل تتقدم دائماً ورأسك الى وراء؟» أو «هل ماتراه دائماً يقع خلفك؟» أو «هل تحدث اسفارك دائماً في الماضي؟»

ذلك كله، لكي يستطيع ماركو أن يفسر أو يتخيل انه يفسر، أو ينجح اخيراً في أن يفسر لنفسه ان ماشاهده، هو شيء يكمن في المستقبل القريب، وحتى اذا كان بعض أحداث الماضي، فهو ذلك الماضي الذي تغير شيئاً فشيئاً وهو يتقدم في رحلته. لأن ماضي المسافر يتغير وفق الطريق الذي سلكه: ليس الماضي الحالي الذي يضيف له كل يوم يمر يوماً، ولكنه الماضي الأكثر بعداً. وفي وصوله الى اي مدينة جديدة، يجد المسافر ماضياً له لا يعرف انه امتلكه يوماً: مالم تعد تمتلكه، يظل بانتظارك في اماكن غريبة لم تشهدها بعد.

ماركو يدخل مدينة، فيري شخصاً في ميدانها يعيش حياة ماركو أو حياة مشابهة لها. يقدر الآن ان يكون في مكان ذلك الرجل. لو توقف في الزمان، فيما مضى، أو لو أنه فيما مضى، وفي مفترق الطرق، بدلا من أن يتخذ ذلك الطريق قد سلك الطريق الذي يعاكسه، لوصل مكان ذلك الرجل في ذلك الميدان. انه منذ الآن معزول عن ماضيه الحقيقي، أو المفترض. وهو لا يستطيع التوقف، عليه أن يستمر الى مدينة اخرى، حيث ماض آخر من مواضيه ينتظره، أو ربما كان شيئاً يمكن أن يكون مستقبلا له. الذي هو حاضر الآن شخص آخر.

المستقبلات التي لم تتحقق ليست غير أغصان للماضي، اغصان ميتة.

مكتبة الفكر الجديد

«هل الأسفار لا ستعادة العيش في الماضي؟»

كان هذا سؤال خان في تلك اللحظة. السؤال الذي يمكن صياغته ايضاً بـ «هل الاسفار لاعادة حجب المستقبل؟»

وكان جواب ماركو:

«في المكان الآخر مرآة معتمة. المسافر يرى فيها القليل مما له، ويكتشف الكثير مما ليس له ولن يمتلكه يوماً.»

مكتبة الفكر الجديد

في موريلا، يدعى المسافر لزيارة المدينة، وفي الوقت نفسه لرؤية البطاقات البريدية التي تصورها كما هي: ذلك الميدان نفسه حيث الدجاجة في موقف الباص، ومنصّةُ الفرقة الموسيقية مكان جسر المشاة، سيدتان شابتان بمظلتين بيضاوين مكان مصنع العدد الحربية.

اذا لم يشأ المسافر أن يخيب أهل المدينة فعليه ان يمتدح بطاقة بريد المدينة ويفضلها على المدينة الحقيقة، مثلما عليه ان يكون حذراً من ابداء أسفه على ماقد تغير، وضمن حدود معينة عليه ان يعترف بان فخامة وغنى موريلا البطاقة حين تقارن بموريلا المكان، لا تعادلها ميزة ضائعة، وما ضاع، على كل حال، يمكن ادراكه الآن في البطاقات القديمة، التي صورت حين كانت موريلا تلك امام عيون المرء. المرء لايرى شيئاً مجيداً قط، وقديراها اليوم دون مايُظن اذا ما بقيت موريلا دون تغير على اية حال، المدينة اكتسبت جاذبية من خلال ماقد صارت اليه. فالمرء يقدر الآن ان ينظر بحنين الى الماضي ليشهدها كيف كانت.

حذار أن تقول لهم ان مدناً مختلفة احياناً تتبع الواحدة الاخرى بالحجم نفسه وتحت الاسم نفسه، تولد وتموت دون ان تعرف الواحدة الأخرى، ودون تواصل بينهما. وقد يحمل سكان هذه المدن الاسم نفسه واللهجة ذاتها وملامح الوجوه. ولكن الآلهة التي تحيا وراء الاسماء وفوق الامكنة قد غادرت دون كلمة، وحل مكانها دخلاء. غير مجد سؤلك: هل الجدد افضل أو اسوأ من القدامى، ما دام لاتواصل بينهم. و

مكتبة الفكر الجديد

البطاقات البريدية لا تكشف عن موريلا التي كانت انما تصور مدينة أخرى، من الصدُفِ ان اسمها موريلا مثل اسم هذي المدينة.

محن ورغبة ٤

في ميدان فيدورا، المدينة ذات الحجار الرمادية، تقوم بناية معدنية وكرة من الكريستال لكل غرفة فيها. تنظر في كل كرة فترى مدينة زرقاء هي انموذج لفيدورا اخرى. هذه هي الاشكال التي تتخذها المدينة، ولسبب او آخر، لم تعد المدينة التي نراها اليوم. في كل عصر يُنْظر لفيدورا كما هي، فتصور ممعمارٌ طريقة لجعلها تبدو مثالية ولكن بينما هو يقيم انموذجه، تكون قد غيرت نفسها، ولم تعد تلك التي كانت وما كان حتى امس مستقبلا ممكناً صار مجرد لعبةٍ في كرة زجاجية. البناية ذات الكرات هي الآن متحف فيدورا: كل سكان المدينة يزورونه، كل منهم يختار المدينة التي تمس رغباته وتلبيها، يراها منعكسة في بركة فرعونية استمدت ماءها من تلك القناة اذا لم تكن اليوم قد جفت. المشهد من اعلى يرسم صندوقاً يمتد طول طريق خاص بالفيلة قد زال من المدينة اليوم. ويكشف لك عن طرافة إنزلاق المنارة الملوية المتموجة التي لم تنل قاعدة ترتفع منها على خارطة امبراطوريتك. ايها الخان العظيم، لابد من غرفة للاثنين فيدورا الصخرية الكبيرة والفيدورات الصغيرات في الكرات الزجاجية، لا لانها جميعاً حقيقيات بالتساوي، ولكن لانها

مكتبة الفكر الجديد

جميعاً مجرد افتراضات. فواحدة تحتوي على ما ارتُضي به لضرورته، بينما هو ليس كذلك والباقيات تحتوي على مايُتَصوَّر انه ممكن ثم بعد لحظة من احتوائه، لا يعود ممكناً.

مدن وعلامات ٣

المسافر الذي لايعرف المدينة التي تنتظره بعد طريق طويل، سيدهشه البلاط، الثكنات، الطاحونة، المسرح والسوق، ففي كل مدينة من مدن الامبراطورية تختلف كل بناية عن سواها وتقوم وتشخص بناية بنظام مختلف لكن ما ان يصل المسافر الى المدينة المجهولة وتخترق عيناه هيكل العبادة المخروطي كالصنوبر، والغرف الصغيرة العالية، والمتابن وراء التواء القنوات، والحدائق والمزابل، حتى تتضح له قصور الامراء، معبد الحبر الاعظم ومعبد الخان، والسجن وحي الفقراء. ان هذا، يقول البعض، يثبت الفكرة التي تقول بان كل انسان يحمل في عقله مدينةً مكونة فقط من الاختلافات، مدينةً دون ارقام، دون شكل، تملؤها المدن الخاصة.

ان هذا لايصح على «زو». ففي كل نقطة من هذه المدينة، تستطيع ان تنام، تضع اشياءك، تطبخ، تصوغ ذهباً، تعرى، تحكم، تبيع، تسأل عن الغيب. كل واحد من سقوفها الهرمية يمكن ان يكون مشفى او حمام حريم. المسافر يطوف في المدينة ولا يحمل الا شكوكاً. هو غير قادر على تمييز ملامح المدينة، والسمات التي احتفظ بها بارزة في عقله، اختلطت هي ايضاً.

مكتبة الفكر الجديد

استنتج: اذا كان الوجود في جميع لحظاته مكتملا في ذاته، فزو مكان لوحدة هذا الوجود. ولكن ما هو مبرر وجود المدينة؟ واي خط يفصل الداخل عن الخارج، وصوت العجلات عن عواء الذئاب؟

سحن خفاف ٢

ساروي لكم الآن عن مدينة زنوبيا، مدينة مدهشة من هذه الناحية. فهي تقوم على ارض جافة وهي ضخمة الابنية والدور فيها شيدت من الخيزران والخارصين. وكل طراميها وشرفاتها تقوم على ركائز ذات ارتفاعات متفاوتة، تجتاز الواحدة الاخرى، تربطها مرتقيات ومماش جانبية، وتعلو الابنية مظلات وبراميل لخزن الماء، ودوارات اتجاه الريح، بكرات بارزات وبرك اسماك وغرانيق.

لا احد يتذكر اي حاجة او طلب او رغبة دعت مؤسسي زنوبيا لان يشيدوا مدينتهم بهذا الشكل، فلا تعلم ان كانت المدينة مقتنعة بصورتها التي نراها اليوم، والتي ربما تمت مرحلة بعد مرحلة. انها الآن فكرة مغلقة. لكن ماهو اكيد، انك لو سالت احداً من اهل زنوبيا أن يصف لك رؤيته لحياة سعيدة، لكان جوابه دائماً ان يتصور مدينة مثل زنوبيا، بدعاماتها وسلالمها. ربما كانت زنوبيا خيالِهِ مختلفةً تماماً فتلك تخفق اعلامها واطيارها، لكنها تاتي دائماً وباواصر ثابتة من الانموذج الاول. ان في هذا، كما يقال، محاولةً بغير هدى لتقرير ان كانت زنوبيا من المدن السعيدة او غير السعيدة. فمما يفقد

مكتبة الفكر الجديد

المعنى ان نقسم المدن الى هذين الصنفين، الافضل ان نقسمها الى اثنين: المدن التي تظل عبر السنين تمنح التغيرات فيها اشكالها للرغبات وتلك التي إما أن تمحو المدنيةُ الرغباتِ فيها، أو ان تمحو الرغباتُ المدينة.

مدن تجارية ١

تتقدم ثمانين ميلا في الريح الشمالية الغربية، فتصل مدينة يوفيميا، حيث التجار من سبعة اقوام يجتمعون في كل انقلاب صيفي او كل اعتدال ربيعي. المركب الذي رسا هناك مع مركب زنجبيل وقطن سيعاود ابحاره. مقدمته مملوءة ببذور الفستق والخشخاش، والمركب الذي انزل تواً حمولته من اكياس جوز الطيب والزبيب راحوا يحشون حقائبه الجلدية بلفات من الموسلين الذهبي لرحلة العودة. إن مايدفع الناس للسفر في الانهار وعبور الصحاري والمجيء لهذي المدينة هو تبادل البضائع وحده، والذي يمكن ان يحصل في اي مكان آخر، في كل الاسواق داخل وخارج امبراطورية الخان العظيم حيث تعرض السلع والغلال على حصر صفراء وفي ظل مظلات متشابهة تحميهم من الذباب ومعروضة اشياؤهم باثمان مخفّضة.. ولكنك لاتاتي الى يوفيميا لتبيع وتشتري حسب، ايضاً من أجل تلك الجلسات في الليل على البراميل والاكياس، والتمدد على لفات السجاد والنيران موقدة في ذلك السوق وسط العراء. وحين ترد كلمة على لسان احدهم مثل «ذئب»، «اخت» «كنز مخفي» «معركة» «جرب» «عشاق» يبدأ الآخرون إثر سماعهم اي من تلك

مكتبة الفكر الجديد

الكلمات كل يقص حكايته عن الذئاب، الأخوات، الحرب، العشاق والمعارك. وانت تفكر في رحلة العودة الطويلة التي تنتظرك من يوفيما، المدينة التي يتاجرون فيها بالذكريات، في تجميع ذكرياتك واحدة بعد اخرى، يصير ذئبك ذئباً آخر، واختك اختاً اخرى ومعركتك معركة مختلفة...

مكتبة الفكر الجديد

وصل ماركو بولو تواً، فلم يبال بلغات «الليفانت» وقد استطاع ان يكشف عن شخصه باخراج الاشياء من خرجه: طبول، سمك مملح، قلائد من خرز نبات نادر، اسنان خنازير ـ كان يعلن عنها باشارات، قفزات، صيحات اعجاب أو رعبوتقليد عواء الثعلب أو نعيب البوم. الروابط بين عناصر قصة واخرى لم تكن واضحة دائماً للامبراطور، فالاشياء يمكن ان يكون لها معان مختلفة، فجعبة مليئة بالسهام يمكن ان تدل على حرب أو على وفرة الصيد، او على مخزن لعدد القتال. والساعة الرملية قد تعني ان الوقت يمر أو ان الوقت مر، او الرمل او المكان الذي تصنع فيه الساعات الرملية. ولكن ما يؤكد للقبلاي كل حدث او نبأ ينقله مخبرُهُ عيي اللسان هو الفراغ الذي يظل حول ذلك، متجنباً ملأه بالكلمات. وصفُ ماركو للمدن التي زارها، له هذه الفضيلة: يمكنك التجول فيها في الفكر، تضيع، تقف تتمتع بالهواء اللطيف، أو تهرب.

وفي مرور الوقت، صارت الكلمات تحل محل الاشياء والاشارات في حكايات ماركو، اولا علامات التعجب، الاسماء المفردة، الافعال الجامدة، ثم العبارات وبعض الاحاديث والردود ثم الاستعارات والتشبيهات والمجازات. لقد تعلم الاجنبي لغة الامبراطور، او ان الامبراطور صار يفهم لغة الاجنبي ولكنك يمكن ان تقول بان التواصل بينهما صار اقل بهجة مما كان في الماضي: للتأكيد، صارت الكلمات أكثر نفعاً من الأشياء، والاشارات عند الاصغاء هي الأهم من اي اقليم أو مدينة بمعالمها، اسواقها، رسومها، حيوانها ونباتها ـ ومع ذلك فحين بدأ ماركو يتحدث عن الحياة في تلك الامكنة، يوماً يعد يوم، ومساء بعد مساء، خذلته الكلمات. وشيئاً فشيئاً عاد يعتمد

مكتبة الفكر الجديد

على الاشارات وملامح الوجه والنظرات.

وهكذا صار بعد كل معلومة مهمة يقدمها عن مدينة بمفردات مقتضبه، يكملها بتعقيب صامت، رافعاً يديه، باسطاً راحتيهِ الى أمام او الى وراء او الى احد الجانبين، وفي حركات مستقيمة أو منحرفة، مهتاجة او هادئة. نوع جديد من الحوار قد تأسس. بدا الخان العظيم المثقلتان بالخواتم، تجيبان بحركات رسمية على حركات يدي التاجر بارزتي العروق والبارعتين. وبما ان مسميات الأشياء تجددت بنماذج من البضائع الجديدة، فما يدخره من تعليق صامت صار يميل الى الدقة والثبات.. والابتهاج بعودته بلاط الخان تضاءل عند الاثنين. في احاديثهما، كانا يظلان، معظم الوقت، صامتين وساكنين.

مكتبة الفكر الجديد

٣

مكتبة
الفكر
الجديد

لاحظ قبلاي خان ان مدن ماركو بولو تشبه الواحدة الأخرى، كما لو ان الطريق من واحدة الى اخرى لا يتضمن رحلة ولكن مجرد تغير عناصر. والآن، من كذا مدينة وصفها له ماركو، صار عقل الخان العظيم يعتمد على نفسه، فبعد ان فكك المدينة قطعة قطعة، أعاد تركيبها بطرق اخرى مبدلا اجزاءها، يرفعها ويعكس أوضاعها.

كان ماركو بولو يروي رحلته، انما لم يعد الامبراطور يصغي له.

قبلاي قاطعه: منذ الآن، انا الذي يصف المدن وستخبرني أنت ان كانت موجودة، كما هي في ذهنك. سأبدأ بسؤالك عن المدينة ذات السلالم المعرضة للريح الشرقية على خليج هلالي. سأدرج لك بعض أعاجيبها: خزان زجاجي يشبه الكاتدرائية لكي يستطيع الناس متابعة سياحة وطيران السمك الدوري ويجتذبون العرافين منها، النخلة التي تعزف بقيثار وسعفها في الريح، وحولها ميدان ذو مائدة مرمرية على شكل حدوة حصان عليها مفرش مرمري تعلوه أطعمة وأشربة من مرمر أيضاً.

ـ «سيدي كأن عقلك يطوف فيها، هذه هي المدينة التي كنت اخبرك عنها حين قاطعتني.»

ـ «هل تعرفها؟ اين هي؟ ما اسمها؟»

ـليس لها مكان او اسم سأعيد سبب وصفها لكم: من عدد المدن التي نتخيلها، يجب ان نستثني تلك التي تتشابه مكوناتها دون خيط رابط بينها أو قانون داخلي ينتظمها أو فكر أو خطاب.

الامر مع المدن، كما هو مع الاحلام، كل ما يمكن تصوره يمكن ان يُحْلَم به. ولكن حتى الحلم غير المتوقع هو علامة تخفي رغبة أو تخفي نقيضها، خوفاً. المدن مثل الاحلام مكونة من رغبات ومخاوف.

مكتبة الفكر الجديد

مهما كان خيط خطابها سرياً، قواعدها غامضة، مشاهدها خداعة، فكل شيء يخفي شيئاً آخر.

ليس لي رغبات ولا مخاوف.» أعلن القبلاي، «واحلامي اما ان يحققها عقلي أو الصدفة.»

«المدن أيضاً تعتقد بانها من عمل العقل او الصدفة. ولكن لا هذا ولا تلك كافيان لاقامة جدرانها. ان فرحتك لاتكمن في عجائب المدينة السبعة أو السبعين ولكن في جوابها عن سؤالك.»

«او في السؤال الذي تسألك اياه وتجبرك على اجابته، تماماً كما جاءت طيبة من فم ابي الهول.»

مكتبة الفكر الجديد

من ذلك المكان. وبعد ستة ايام وسبع ليال تصل زبيدة المدينة البيضاء المكشوفة تماماً للقمر، شوارعها تدور حول نفسها كما لو كانت شلة خيوط. يروون هذه الحكاية عن تأسيس المدينة: ناس من امم شتى حلموا جميعاً حلماً واحداً. رأوا امراة تركض في الليل عبر مدينة مجهولة، رأوها من ظهرها عارية وبشعر طويل. حلموا انهم يتعقبونها. وبينما هم ينعطفون ويستديرون، افتقدوها جميعاً. حين استفاقوا انطلقوا يفتشون عن تلك المدينة فلم يجدوها ووجدوا مدينة اخرى. قرروا تشييد مدينة كتلك التي في الحلم. عند رسم الشوارع، كل منهم اتخذ الطريق الذي سلكه في تعقبه، وفي كل مكانٍ افتقدوا فيه اثر العارية الهاربة انشاوا جداراً وفراغات تختلف عما في الحلم، لكي لاتستطيع الهرب مرة اخرى. هذه هي مدينة زبيده، التي استقروا فيها. ينتظرون ذلك المشهد يعود في احدى الليالي.لا احد منهم يقظان او نائماً راى تلك المراة مرة اخرى. صارت الشوارع شوارع يسلكونها الى اعمالهم كل يوم، ولا رابطة بعد بالمدينة التي في الحلم، والتي لذلك اوغلت في النسيان.

رجال جدد وصلوا من مواطن اخرى، كانوا قد حلموا حلماً مثل حلم الرجال الذين قبلهم، وفي مدينة زبيدة، ادركوا شيئاً من شوارع الحلم، وغيروا مواقع الاركاديا وممرات السلالم، لتشبه اكثر طريق المراة الهاربة وهكذا في البقعة التي تلاشت فيها، لم يبق هناك زقاق للهرب.

وإذ تصل أول مرة، لن تفهم ما الذي جر الناس الى زبيدة، هذه المدينة القبيحة، هذا الشرك.

مكتبة الفكر الجديد

محن وعلامات ٤

لاتغير واحد من كل تغييرات اللغة التي يتحتم على المسافر ان يواجهها، يمكن أن يعادل ماينتظره من مدينة هاييناتيا، لان التغير فيها لايمس الكلمات، انما الأشياء. دخلت هاييناتيا صباح احد الايام، وكانت حديقة ماكوليا تنعكس في زرقة البحيرات. سرت محاذياً الاسيجة موقناً باني ساكتشف فتيات حساناً يسبحن، لكني رايت في قاع كل بحيرة، القنافذ تاكل عيون المنتحرات وقد ربطت الصخور الى أعناقهن واخضرت شعورهن من أعشاب الماء. احسست اني مخدوع وقررت ان اطلب عدالة السلطان. تسلقت السلالم الرخامية للبلاط ذي القباب العالية، اجتزت ست باحات من القرميد فيها نافورات، واحواض القاعة الوسطى مسيجة بحواجز حديدية ذات قواطع وقضبان: مدانون بسلاسل سود على اقدامهم، يحملون صخور البازلت من مقلع مفتوح تحت الارض.

استطعت فقط ان اسأل الفلاسفة. دخلت المكتبة الكبيرة، ضعت بين رفوف معلقة بحبال. اتبعت نظاماً هجائياً لأبجدية زائلة. اعلى أسفل قاعات، وسلالم وقناطر. في غريفة من البردي قصية، في سحابة من دخان، لاحت لي عينان لامعتان لفتى منطرح على حصير، شفتاه تنطبقان على غليون افيون.

ـ «اين الحكيم؟»

اشار المدخن الى خارج النافذة. كانت حديقة تنتشر فيها ملاعب اطفال: قناني البولنغ الخشبية التسع، ارجوحة، سلم

مكتبة الفكر الجديد

الصعود للقمة. الفيلسوف كان جالساً على العشب. قال: العلامات ترسم لغة، لكنها ليست اللغة التي تظن انك تعرفها.»

أدركت ان علي ان أحرر نفسي من الخيالات التي صورت لي الاشياء التي رايتها في الماضي: اذاك فقط أنجح في فهم لغة هاييانيا. على الآن ان استمع الى صهيل الخيل وضرب السياط وانا خلو الا من ارتعاش العاشق.

في هاييانيا عليك ان تمضي الى الاصطبل، وتعتلي جواداً فتجري في الحلبات، لترى النساء الجميلات اللاتي يعتلين السروج، افخاذهن عارية وعلى سيقانهن زرَدَ. فما ان يصل شاب غريب حتى يلقينه على بالات القش او على اكوام نشارة الخشب ويضغطن حلم نهودهن على لحم صدره.

وحين تزهد روحي فلا تريد غذاء الا الموسيقى اعلم اني احصل على ذلك في المقابر. ففي القبور يختبىء العارفون. بين قبر وقبر يرتعش ناي، وتصعد اصوات قيثاراتٍ تجيب احداها الآخرى.

ومن الحقائق في هاييانيا ان النهار يأتي حينما ترحل رغبتي. فاعلم حينها ان علي الا انحدر الى الميناء ولكن اصعد الى أعلى أبراج القلعة وانتظر سفينة تمر من هناك، ولكن هل ستمر سفينة من هناك؟ لا لغة دون خداع.

محن خفاف ٣

لا أدري ان كانت حال ارميلا هذه، بسبب انها لم تنته او

مكتبة الفكر الجديد

لانها دمرت، أو كان السبب هو بعض السحر أو انه حب أو نزوة وهوى. تبقى حقيقة بينه هي: انها مدينة بلا جدران ولا سقوف ولاطوابق ليس لأرميلا شيء يجعلها تبدو مدينة، إلا انابيب الماء ترتفع عمودياً حيث ينبغي ان تكون الدور، وتنتشر افقياً حيث ينبغي ان تكون الطوابق، غابة من انابيب تنتهي في حنفيات، في دشات، في تدفقات واندفاعات ماء. مقابل السماء. قوائم حوض بيض تصعد، او صنبور حمامٍ او اي قطعة خزف اخرى، تلوح مثل ثمرة متاخرة ماتزال عالقة بين الغصون. ستظن ان السماكرة قد انهوا عملهم ومضوا قبل ان يصل عمال تعبيد الطرق، أو غير ذلك كأن تكون خبرتهم الهيدروليكية، المدمرة، قد خلفت زلزالا، أو انه تاكل سببه النمل الأبيض. وسواء هجرت كمدينة قبل او بعد ان تسكن، فارميليا لايمكن ان تسمى مدينةً مهجورة. في اي ساعة ترفع عينيك بين الغلايين، قد ترى امراة شابة، أو عدة نساء يافعات رشيقات منشغلات بصنابير احواض السباحة او محنيات الظهور تحت الادشاش يتحاشين الماء أو يغسلن أو يجففن أو يعطرن انفسهن أو يمشطن شعورهن أمام المرايا. في الشمس تنتشر خيوط الماء متلامعة من زخ الدش، من الصنابير النفاثة ورغوات الاسفنج. لقد وصلت الى هذا التفسير: ظلت الجداول التي تصب قنواتها في أنابيب أرميلا، من ممتلكات حوريات الغاب وحوريات الينابيع. ولانهن اعتدن السفر عبر مسارب تحت الارض، فقد وجدن سهلا الولوج الى المملكة المائية الجديدة، ليتفجرن من ينابيع مضاعفة، ليجدن مرايا جديدة، العاباً جديدة، طرقا اخرى للتمتع بالماء. يمكن ان يتم غزوهن بصُوَرٍ بشرية كان

مكتبة الفكر الجديد

يقدم قداس لكسب رضا الحوريات اللائي استأن من سوء استخدام المياه على اية حال، هن يبدون الآن راضيات لانك تسمع أولاء الحسان في الصباح يغنين.

محن تجارية ٢

في «جلوة» وهي مدينة عظيمة . كل الناس الذين يتحركون في الشوارع غرباء اذا ما التقوا ففي ذهن كل واحد منهم آلاف التصورات عن الآخر . اذا ما حضروا في حديث او حدث غريب او نكتة او على طعام . فلا احد يحيى أحداً . وعيونُ احدهم تحدّق لثانية في عيون الآخر . ثم تشيح تبحث عن عيون اخرى . ولا تتوقف .

تاتي فتاة وهي تدوّر مظلتها على كتفها . كما تدور ردفيها المستديرين . امرأة بالاسود تظهر كامل عمرها . عيناها غير هادئتين تحت قناعها . وشفتاها ترتجفان . عملاق عليه وشم . شاب بشعر ابيض . انثى قزم . توأمان ترتديان ثياباً قرنفلية اللون . شيء ما يجري بينهم . تتبادل نظراتهم مثل خطوط تصل شخصاً بشخص تسحب معها سهاما . نجوماً . مثلثات . حتى يختلط كل هذا المزيج في لحظة . فتحل شخوص اخرى في المشهد : أعمى يقود فهداً من مقوده . محظية ومروحة من ريش النعام وعسكري شاب وامرأة بدينة . وهكذا حين يصادف أن يكون الناس معا . يتخذون لهم من الاركاديا سقفا عن المطر . او يتجمعون تحت مظلات السوق يستمعون الى فرقة موسيقية في الميدان . اللقاءات . الاغواء . والمضاجعات والطقوس تتم دون ان يتبادلوا كلمة واحدة . دون ان يلمس اصبعُ احدهم شيئا من الآخر . وتقريبا دون ان يُرفع نظر .

مكتبة الفكر الجديد

هزة الشهوة تثير «جلوة» باستمرار وهي أكثر المدن عفة . اذا بدأ الرجال والنساء يُحيون أحلامهم الانثوية . فكل خيال يصير شخصاً تبدأ معه قصةٌ مطاردات . وذرائع . سوء فهم وصدامات واضطهادات ويتوقف عرض الاخيلة

مدن وعيون ١

القدامى شادوا فالدرادا على شواطيء بحيرة. جعلوا لدورها شرفات الواحدة فوق الاخرى وشوارعها عالية لها حواجز مقضّبة تشرف على الماء.

فالمسافر الذي يصلها يرى مدينتين: واحدة ترتفع فوق البحيرة والاخرى تنعكس مقلوبة فيها. لاشيء يحدث في احدى الفالدارادتين الا وتعيده الفالدرادا الاخرى. لأن المدينة شيدت بحيث تنعكس كل نقطة فيها في المرآة. والفالدرادا الاخرى التي في الماء لاتحمل كل زخارف وأفاريز الواجهات التي تنهض فوق وحسب. ولكنها تظهر مداخل الغرف وسقوفها وارضياتها ومناظر القاعات ومرايا خزانات الثياب.

سكان فالدرادا يعرفون ان كل فعل من أفعالهم هو في اللحظة نفسها ذلك الفعل وخياله في المرآة. وان عالم مرآتهم يمتلك الاخيلة والادراك ويمنعهم من النسيان. وحتى حين يثني العشاق أجسادهم "لعارية جلداً لجلد. طلباً للوضع الذي يعطي واحدهم متعة اكثر وحتى حين ينفذ القتلة السكين في اوردة العنق الأسود. ويتدفق دم قاتم اكثر كلما ضغطوا السكين المنزلقة بين الأوتار. فليس الذي يعنيهم أكثر

مكتبة الفكر الجديد

مضاجعاتهم هم او قتلهم، انما هو مضاجعات وقتل الاخيلة، تلك الشفافة والباردة التي في المرايا. احياناً تقلل المرأة من قيمة الشيء، احيانا تنكرها. ليس كل ما يبدو قيماً على المرأة يحتفظ بقيمته حين تعكسه المراة. المدينتان التوأمان ليستا متساويتين. إذ لا شيء يوجد او يحدث في فالدرادا متساوق: كل وجه واشارة ترد من المراة بوجه واشارة معكوسين، نقطة بنقطة. الفالدراتان تعيشان الواحدة للاخرى، عيونهما متواشجة، لكن لاحب بينهما.

مكتبة الفكر الجديد

الخان العظيم حلم بمدينة وصفها لماركو

الميناء في الظل ويتجه شمالا. الارصفة عالية فوق ماء أسود يلطم جدران الحواجز. السلالم الحجرية تنحدر، تشكل منزلقاً عند عشب البحر. زوارق مكسوة بالقار مربوطة، تنتظر الركب. المرتحلون ينتظرون على الرصيف ليودعوا عوائلهم. التوديعات تتم بصمت، لكن بدموع. الجو بارد، كل يضع شالا على رأسه، صيحة من النوتي تضع حداً للتأجيلات، المسافر يجثم عند المجذاف، يتحرك مبتعداً ينظر الى جمع الباقين وراءه. من الساحل، لاتميز ملامحه الآن. الزورق يتجه الى مركب مشدود الى مرساة ويقف الى جواره. ينتقل المسافر اليه، على السلم الخشبي ترى هيئة ضئيلة تتسلق صاعدة، تتلاشى، السلسلة الصدئة ترتفع وتتكسر على مقدمة السفينة. الناس الذين تخلفوا يتطلعون الى المتاريس فوق صخور الرصيف الممتد في البحر، عيونهم تتابع السفينة حتى تستدير على أخر امتداد للارض في البحر فيلوحون لآخر مرة بقطعة بيضاء.

قال الخان لماركو «انطلق، اكتشف كل ساحل واعرف المدينة، ثم عد واخبرني ان كان لحلمي صلة بالحقيقة.»

قال ماركو: «إعفني، ياسيدي، فليس من شك بأني عاجلا أم اجلا سأبحر من ذلك المرسى. ولكن لن أعود لاخبرك عنه. المدينة موجودة ولها سرها البسيط: هي تعرف الارتحالات وحدها، ولاتعرف الرجوع.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

شفتاه تمسكان بالغليون المصنوع من غصن العنبر ، لحيته تنبسط قبالة لفاعه ، أصابع قدميه الكبيرة معقوفة بعصبية في شبشبه الحريري ، قبلاي خان يصغي الى حكايات ماركوبولو دون ان يرفع من دهشة حاجبيه . فهذه هي الاماسي التي يثقله فيها ظل من وسواس قلبه .

«مدنك غير موجودة ، ربما لم توجد اصلاً ، واكيد انها لن توجد مرة اخرى . لماذا تلهي نفسك بخرافات تتوسل فيها عزاء ؟ اعلم جيداً ان امبراطوريتي تتعفن مثل جثة في مستنقع ، وداؤها يصيب الغربان التي تأكل منها ، كما يصيب اشجار البامبو التي تنبت وتسمد بما يتلف منها . لم لا تخبرني بهذا ؟ لماذا تكذب على امبراطور التتار ـ ايها الاجنبي ؟

أحسن ماركو بأن الافضل له ان ينزل الى مزاج العاهل الحزين :

«نعم ، الامبراطورية مريضة ، وما هو أسوأ انها تحاول ان تأتلف وقروحها هذا هو غرض استكشافاتي : تفحُّص آثار السعادة التي مازال من الممكن اقتناصها ، انا أقيس المدّخر القليل منها . اذا اردت أن تعرف كم من الظلام حولك ، عليك حد نظر عينيك ، ثم تنفذ نظرك الى الاضواء الخافتة البعيدة .»

في اوقات اخرى ، كانت تمر بالخان نوبات من الخفة ، ينهض واقفاً على وسائده ، يقيس بخطى واسعة السجاد المفروش على الممرات وتحت قدميه ، يتطلع من خلال درابزين الغرف العليا وتظل عيناه المبهورتان تسيحان على مدى حدائق بلاطه ، حيث المصابيح معلقة في شجر الارز .

بعدها يعلن : «وكذا اقول ، ان امبراطوريتي مصنوعة من

مكتبة الفكر الجديد

كريستال ، وجزيئاتها مرتبة في صيغ كاملة . ووسط جيشان العناصر ، تتخذ ماسة ثمينة صلبة شكلها ، جبلاً شفافاً متعدد الوجوه . في أسفارك لماذا تقتصر انطباعاتك على المظاهر المخيبة ولا تصل الفعل الدائم الذي لا يكف . لم تظل انفعالات سوداً وكآبات لا تجدي ؟، لماذا تخفي عن الامبراطور عظمة قدْرِه» ؟.

اجاب ماركو : «بينما في إشارة منك ياسيدي ، ترفع المدينة الأخيرة واللا مثيل لها ، جدرانها أظل انا اجمع رماد مدن ممكنة اخرى تلاشت من أجل ان تشرق غرفة في مدينتك . مدن لن يعاد بناؤها ولن تُسْتَذكر . حينما تعرف بقية الأسى والذي لا يعوضه اي حجر ثمين ، ستكون عند ذاك قادراً على ان تنستنج العدد الصحيح للقراريط التي ينبغي للجوهرة ان تجدها من أجل أن تتكون وتكتمل بها . والا فستكون استنتاجاتك خطأ من بدايتها .

مكتبة الفكر الجديد

باقبلاي الحكيم، لا أحد يعرف افضل منك اننا يجب ألّا نربك المدن بكلمات وصفها. مع ذلك، هنالك رابطة بين مدينة ومدينة فاذا وصفت لك اوليفيا، المدينة الكثيرة الغلال والاموال، فانا سأذكر غناها بوصف قصورها الباذخة والمقاعد ذات الوشي قرب النوافذ التي تتوسط زخارفها أعمدة لطاف.. ووراء شبكها السلكي تتلامع نافورات تنشر الماء على النجيل حيث طاووس أبيض ينشر ذيله. لكنك ستدرك من هذه الكلمات كيف تلف اوليفيا سحابةٌ من سخام ودهان التصق بالبيوت في تلك الشوارع الهادرة. وان الشاحنات المندفعة الصقت السابلة بالجدران.. وإن حدثتك عن صناعة ساكينها، فسأ تحدث عن رائحة جلود مخازن السراجة، عن النسوة يثرثرن وهن يحكن بسطاً من ليف، عن القنوات المعلّقة التي تحرك مساقطها الطواحين ولكن الصورة التي ترسمها الكلمات في عقلك النير. هي صورة قرد كبير يكشر عن اسنان مِخرطة. فعل تكرره آلاف الايدي آلاف المرات، ولكل فعل سرعته وإذا وضعت لك كيف تتوق روح اوليفيا للحياة الحرة والحضارة الصافية، فساخبرك عن سيدات يطلعن ليلاً في زوارق مضاءة بين ضفتي مصب أخضر..

انما اذكرك ان هنالك في الضواحي وحيث ينزل الرجال والنساء مثل صفوف السائرين في نومهم، تجد من ينفجر ضاحكاً في الظلام، مطلقاً سيلاً من النكات والصراخ. انت قد

مكتبة الفكر الجديد

لاتعلم اني حين اتكلم عن اوليفيا، لا استطيع استعمال كلمات مختلفة فان وجدت حقاً اوليفيا ذات المليون شباك وطاووس. اوليفيا السراجين وحانكات بسط من ليف اوليفيا الزوارق ومصبات الانهار، فستكون عندها اوليفيا محطمة سوداء، حفرة يتكوم عليها الذباب، ولكي اصفها يجب علي أن ارتد على مجازات السناج وصرير العجلات وتكرار الافعال، والسخرية. الزيف في الاشياء، لافي الكلمات ابدا.

مدن خفاف ٤

مدينة سوفرونيا مكونة من مدينتين في واحدة منها ساحل كالحادلة بهضبتين منحدرتين ، وفيها الفرسان ورنين سلاسلهم وعجلة لنسج الاقفاص ، واجتياز الموت بدراجات بخارية محدودبة . فيها قمتها الكبيرة والحبال الافقية الكثار مشدودة اليها من وسطها . النصف الآخر من المدينة من الجص والرخام والاسمنت وفيه الساحل والمعامل والقصور والمجزرة والمدرسة وسواها . احد نصفي المدينة ثابت والآخر زائل . حين تنتهي فترة الاقامة في هذا النصف يقتلعونه ، يفككون اجزاءه وينقلونه الى مهملات نصف مدينة اخرى .

وهكذا وفي كل سنة يأتي اليوم الذي يزيح فيه العمال اللوصرات الرخامية ويهدمون الوزارة والمعبد وارصفة المرسى ومصفى النفط والمستشفى ، يحملونها في شاحنات لتنقل من

مكتبة الفكر الجديد

موقع الى موقع حتىٰ يكملوا رحلة الحَوْل . يظل هنا نصف سوفرونيا حيث أبراج الرمي وعروض الفرسان وصيحة الارتياب من عربة حادلة تجري على الساحل شديد الانحدار

وهكذا يبدأ عد الشهور والايام التي يجب ان تنتظر حتى تعود القافلة وتبدأ الحياة الكاملة من جديد .

محن تجارية ٣

حين يدخل المسافر ذلك الاقليم الذي عاصمته اوتروبيا ، لا يرىٰ مدينة ولكن يرىٰ عدة مدن حجمها واحد وغير مختلفة واحدتها عن الاخرىٰ . تنتشر كلها على ساحل واسع منحدر . اوتروبيا ليست واحدةً ، ولكنها كل هذه المدن ، وواحدة منها فقط تُسكَنُ في كل مرة . البقية تظل خالية . وهذه الطريقة مستمرة وعلى التعاقب . ساخبرك الآن كيف يكون ذلك :

في اليوم الذي يشعر فيه سكان اوتروبيا بالتعب ، وبان كل واحد منهم لم يعد يطيق عـ أو أقاربه أو داره وحياته وديونه والناس الذين عليه ان يحييهم او الذين يحيونه ، حين ذلك يقرر كل سكان المدينة الارتحال الى مدينة اخرىٰ تكون بانتظارهم ، مدينة ثانية خالية وطيبة وجديدة . وهناك يتخذ كل له عملاً جديداً ، زوجة اخرىٰ ، ويطل من نافذته على مناظر اخرىٰ ، ويقضي اوقاته بمسرات مختلفة ومع اصدقاء آخرين ويتعهده والدان آخران . وهكذا تتجدد حياتهم من انتقال الى آخر ، بين مدن ، واجهاتها ومنحدراتها وجداولها وهواؤها تجعل كل موقع فيها مختلفاً نوعاً من الاختلاف عن المواقع

مكتبة الفكر الجديد

الاخرىٰ . ومادام مجتمعهم منظماً دون تطرف في الثروة او في السلطة ، فالعبور من مهمة الى اخرىٰ يتم دون صدمة او غريب اثر . المتنوعات أكيدة والمستجدات مضاعفة لذا يندر ان يعود فيها انسان طيلة حياته الى عمل غادره .

وهكذا تكرر المدينة حياتها بنفسها ، تصعد وتنزل على لوحة شطرنج فارغة ، وتتنقل عليها . سكانها يعيدون المشاهد نفسها ، وقد تغير الممثلون يعيدون الاحاديث ذاتها بلهجات مختلطة بطريقة اخرىٰ ، وهم يفتحون افواهاً متعاقبة في تثاؤب ازلي . وحدها ، دون جميع مدن الامبراطورية ، تبقىٰ اوتروبيا هي نفسها دائماً .

مركوري ، اله التحول ، الذي تقدسه المدينة ، انجز هذه المعجزة الغامضة .

مدن وعيون ٢

انه مزاج الحاكم ذاك الذي اعطىٰ مدينة زمرود شكلها . اذا مررت تصفر وانفك فرس صغيرة وراء الصافرة ، سوف ترىٰ المدينة من اسفل : أطر النوافذ ، الستائر المرفرفة ، عيون الماء . وإن سرت رأسك مرفوع وأظافرك تحفر راحتي يديك ، يستقر تحديقك في الارض ، في المجرىٰ ، في اغطية البالوعات وموازين السمك والاوراق المهملة . لا يمكنك القول ان ملمحاً من ملامح المدينة هو اكثر صدقاً من الآخر . ولكنك تسمع اكثر ما تسمع

مكتبة الفكر الجديد

عن زمرود العليا . اولئك الذين يتذكرونها بينما هم يغرقون في زمرود السفلى ، يتابعون كل يوم الامتدادات الخالية والشوارع نفسها ، ويجدون كل صباح سوء طبع اليوم السابق متيبساً أسفل الجدران . فبالنسبة لكل واحدٍ منا ، عاجلاً ام أجلاً ، يجيء النهار حين تهبط نظراتنا عبر مجاري الماء ولا نعود قادرين على رفعها وتجاوز الحصن الكبير . العودة ليست غير ممكنة ولكنها أكثر استحالة من اي شيء .

وهكذا نستمر على الحركة خلال شوارع زمرود وعيوننا تحفر في خلاياها البعيدة . في اسسها و أبارها

مدن وأسماء ١

هنالك القليل مما استطيع قوله لك عن أكلورا ، غير ما يردده سكانها :

نظام للفضائل العامة ، وللاخطاء العامة ، بضعة شاذون ، بعض المدققين في اتباع القواعد ، مراقبون قدامى مما لا سبب يدعو لاعتبارهم الآن أمناء ، ينسبون الى أكلورا اصنافاً ثابتة من المزايا ، ويؤكدون على مقارنتها بتلك التي للمدن الأخرى في أزمانها . ربما لا أكلورا المكتوبة ، ولا أكلورا المرئية قد تغيرت كثيراً منذ ذلك الحين . ولكن ماكان غريباً صار مالوفاً ، وما كان طبيعياً هو الآن غريب . والفضائل والاخطاء فقدت روحها او شرها ، فهي قد اختلطت الآن في جملة الفضائل والاخطاء .

لا شيء يقال في أكلورا صحيح او حقيقي ، مع ذلك فهذه

مكتبة الفكر الجديد

الحسابات قد خلقت للمدينة صورة صلبة وثابتة . فيها الأفكار غير المنتظمة ، والتي قد تحدس حدساً ، فقد افتقدت اساسها المادي . وهذه هي النتيجة : المدينة التي يتحدثون عنها ، فيها كل ما يريدون ان يوجد فيها ، بينما المدينة الحقيقية التي تقوم الآن فوق تلك ، هي الاقل وجوداً .

لذلك فإن اردت انا ان اصف لك اكلورا معتمداً على ما رأيته وخبرته ، علي أن اقول لك :

هي مدينة بلا لون ، بلا شخصية ، مزروعة هناك بلا هدف .

لكن هذا غير صحيح ايضاً . ففي ساعات معينة ، في أمكنة معينة على طول الشارع ، تجد امامك واضحاً ملمح شيء لا يقبل الخطأ ، نادر ، ربما باهر ، تقول ماهو ، ولكن ماقيل قبل هذا عن اكلورا يحبس كلماتك ، ويجبرك على اعادة الكلمات مع نفسك دون التفوه بها .

لهذا فسكانها يعتقدون بانهم يعيشون في اكلورا التي تنمو مع اسم اكلورا ولا يلاحظون اكلورا التي تنمو على الارض . وحتى انا ، الذي أميل للاحتفاظ بالمدينتين معاً في ذاكرتي ، استطيع الكلام فقط عن هذه الواحدة ، لأن ذكرى اكلورا قد ضاعت بسبب افتقاد الكلمات التي تعبر عنها ....

مكتبة الفكر الجديد

قال الخان: «منذ الآن، سأصف لك المدن، وفي رحلاتك سترى إن كانت موجودة،» ولكن المدن التي زارها ماركو بولو كانت دائماً مختلفةً عن تلك التي فكر بها الامبراطور. «ومع ذلك، فقد أقمت في ذهني نموذجاً بمكن ان تستنتج منه كل المدن المحتملة. إنه يحتوي على كل شيء يتصل بالمدينة المثال. ومادامت المدن الموجودة تختلف بدرجات متفاوتة عن ذلك المثال، فالذي اريده هو الاختلافات عن ذلك المثال، وأن اجمع اكثر التوافقات الممكنة.

«كذلك فكرت بالمدينة الا نموذج التي استنتج منها كل المدن الاخرى.»

أجاب ماركو: إنها مدينة مكونة من الاستثناءات، من الممنوعات، من المتعارضات والمتناقضات فان كانت مدينة كتلك هي الأقل احتمالاً، فبتقليل عدد هذه العناصر نزيد احتمال وجودها. لذا علي ان أطرح الاستثناءات من انموذجي، واحدد الاتجاه الذي ابدأ السير فيه، وعندها سأصل واحدةً من المدن التي توجد دائماً كاستثناء. ولكني لااستطيع ارغام نفسي على المواصلة بعد حدٍ معين. سأصل مدناً يحتمل جداً ان تكون حقيقية.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

من درابزين القصر العالي يراقب قبلاي خان العظيم امبراطوريته وهي تكبر. لقد امتد خط الحدود حتى احاط بالأقاليم التي غزاها، لكن تقدم جيوشه قد شمل مناطق نصف قاحلة وقرى بائسة وأكواخاً ومستنقعاتٍ لاينبت فيها الرز وشعوباً هزيلة وانهاراً يابسة وقصبا. «امبراطويتي اتسعت كثيراً الى الخارج، انه الوقت الذي تنمو فيه من تلقاء نفسها.»

هكذا كان يفكر الخان، واستمر يحلم ببساتين الرمان، بالثمار شديدة النضج وهي تشق جلدها، بأطيار «الدرابين» ذات السنام وهي على السفافيد تحمر ويقطر زيتها في النار، وبأقنعةٍ من المعدن يتقي بها انهيالات التراب وشذرات الذهب اللوامع فيه.

المواسم وفيرة الغلال، ملأت الأهراء، والانهار في فيضانها حملت خشب الغابات الذي سيسند السقوف البرنزية للمعابد والقصور. قوافل العبيد تجتاز الجبال ذات الصخور الخضر المرقطة والممتدة عبر القارة. الخان العظيم يفكر في امبراطورية تغطيها المدن الفخمة التي تنوء بثقلها الارض، المكتظة بالناس والثروات والحركة، المثقلة بالزينة والمكاتب والمعقدة بالميكانيك واللجان؛ مدن ممتلئة، متوترة وثقيلة.

قبلاي خان يفكر: «الامبراطورية ستسحق نفسها.» وفي احلامه تبدو المدن كطيارات ورقية، تبدو مدببة مثل الرماح، مدناً تتنقل مثل البعوض ومثل البعوض تستقر. تبدو مثل عروق الورق، مخططة مثل راحة الكف، مدناً مزخرفة، مخرمة ترى من خلال غموضها ولا

مكتبة الفكر الجديد

حقيقتها.

قال لماركو: «سأخبرك بما رأيته في الليلة الماضية: وسط أرض صفراء منبسطة منقطة بالرجم والجلاميد، رأيت من بعيد أبراج مدينةٍ ترتفع قبابها المدببة وقد أقيمت بشكل يمكن للقمر في رحلته أن يستريح على واحدة منها حيناً وعلى الأخرى حيناً آخر، أو ينزلق على حبال الرافعات.»

قال له ماركو بولو: «مدينة احلامك هي «لاليج». اهلها رسموا هذه الطلبات ولاحت إجاباتها في سماء الليل، لذلك سيعطي القمر كل شيء في المدينة قوة النمو والنمو الى مالانهاية.»

قال قبلاي خان: «هنالك شيء لاتعرفه، القمر، امتناناً، وهب مدينة لاليج امتيازاً نادراً: ذلك هو ان تنمو في إضاءته وأشراقه عليها »

مكتبة الفكر الجديد

مدن خفاف ٥

إن اخترت الرضا بما أقول، فذلك حسن. سأخبرك كيف أنشئت أوكتافيا، مدينة نسيج العنكبوت: هنالك فراغ بين جبلين شاهقين، المدينة معلقة فوق ذلك الفراغ. مشدودة الى القمتين بحبال وسلاسل ومعابر ضيقة. فانت تسير فيها على روابط خشبية صغيرة حذراً من ان تزل قدمك الى الفراغ. بضع غيماتٍ تلتمع عابرة، وراءها الى أسفل، يلمع قاع الهوة الكبيرة.

هذا هو تكوين المدينة، شبكة تخدم كممر وسند من السقوط. كل مابقي منها، بدلاً من ان يرتفع إلى أعلى، يتدلى إلى أسفل. سلاسل من جبال، أراجيح نوم، مساكن صنعت مثل أكياس كبيرة، مشاجب ومصاطب مثل زوارق صغيرة، سقاءات ماء، مفرغات هواء ومباصق، سلال معلقة في خيوط، مناضد صغيرة، دشات، عقل للرياضة وحلقات لالعاب الاطفال، سيارات «كيبل» تنزلق على حبالها، ثريات وزهريات تص عد منها نباتات متسلقة.

حياة اهل او كتافيا المعلقة فوق تلك الهاوية ليست اكثر اطمئناناً من الحياة في المدن الأخرى. فكل الذي يعرفونه ان الشبكة ستستمر طويلاً.

مدن تجارية ٤

لكي يقيم سكان ارسيليا علاقات تنظم حياة المدينة، فقد مدوا خيوطاً من أركان البيوت. بيضاً أو سوداً أو رماديةً، أو سودا

مكتبة الفكر الجديد

بيضا، حسب العلاقة التي يريدون تاشيرها، رابطةَ دمٍ أو تجارة أو ملكية أو وكالة. وحين تصير الخيوط كبيرة العدد، متشابكة فلا يستطيعون المرور بينها، يغادر الناس المدينة، تقوض البيوت ولايبقى منها إلا الحبال والمساند.

يخيم أهل ارسيليا اللاجئون على أحد جانبي الجبل بكل اشيائهم المنزلية وبضاعتهم، ينظرون من ذلك السفح العالي إلى المتاهة الكبيرة من الجبال والاعمدة الصاعدة من ذلك السهل، تلك هي مدينة أرسيسلا مستقرة أما هم، فلا شيء.

يقيمون ارسيليا أخرى في مكان آخر ينسجون نمطاً مشابهاً من الحبال: يريدونها هذه المرة أكثر تعقيداً، وفي الوقت نفسه اكثر انتظاماً مما في الأخرى. ثم يهجرون هذه ويحملون انفسهم وبيوتهم الى مكان آخر أكثر بعداً.

وهكذا، حين تسافر في إقليم ارسيليا تاتي على خرائب مدن بلا جدران، فقد درست جدرانها، وعلى موتى بلا عظام، فقد دحرجت الريح العظام بعيداً:

نسيج العلاقات العنكبوتة الشائكة يبحث عن شكل.

مدن وعيون ٣

بعد مسيرة سبعة أيام عبر الأشجار لايرى المسافر المتجه الى بوسيز المدينة وهو قد وصلها. فالركائز النحاف التي تصعد من الأرض والتي تقوم عليها المدينة تفصل بين الواحدة والاخرى مسافة شاسعة. وتضيع أعاليها في الغيوم.

مكتبة الفكر الجديد

الناس يتسلقون المدينة بسلالم، وهم لايظهرون على الارض، فهم وكل مايحتاجونه هنالك، في الأعالي، ولا احد يفضل النزول الى الاسفل لاشيء من هذه المدينة يلامس التراب إلا سيقان «البشروس» الطويلة تلك والتي تستند المدينة عليها. وحينما تكون الايام مشمسة يهبط على زخرف تلك الخطوط ظل مضلع هنالك ثلاثة افتراضات عن أهل باوسيز: هي: انهم يكرهون الأرض؛ وانهم يحترمونها كثيراً حد تجنب أي تماس بها وانهم يحبونها كما كانت قبل ان يوجدوا عليها، وبالمناظير والمراصد الموجهة الى اسفل لايتعبون من تفحصها ورقةً ورقةً وحجراً حجراً ونملةً نملةً، يتاملونها مفتونين وهم بعيدون عنها.

محن وأسماء ٢

نوعان من الآلهة يحرسون مدينة ليندرا. كلا النوعين صغار جداً فلا يرون، وكثيرون جداً فلا يحصون. نوع يقفون في ابواب الدور، داخلها، تحت شرفات الدور المجاورة والمظلات، وفي اوقات الارتحال، يتبعون العوائل المنتقلة ويختارون لانفسهم مكاناً في مستودع المفاتيح والباقون يستقرون في المطبخ او يختفون تحت القدور وفي أنبوب المدخنة أو ركن المكنسة: هم ينتمون الى الدار، وحينما ترحل العائلة الساكنة فيها يظلون مع النازلين الجدد، فربما كانوا في هذا المكان قبل ان تقام الدار، وبين اعشاب المكان الخالي، أو انهم كانوا مختفين في علبة

مكتبة الفكر الجديد

صدئه، فاذا ماهدمت الدار ونهضت مكانها عمارة لخمسين عائلة، تضاعفت تلكم الآلهة في مطابخ الشقق العديدة.

ولكي نميز بين نوعي الآلهة سندعو النوع الأول بنيتس والآخر ليرز. في الدار الجديدة المعطاة ليس ضرورياً ان يبقى الليرز مع الليرز ولا البنيتس مع البنيتس انهم يزورون بعضهم بعضاً، يتمشون معاً على نقوش الطنف والافاريز وفي انابيب المدافيء، وهم يتحدثون عما يقع للعائلة من احداث، وغير مستبعد انهم يختصمون، ولكنهم يقضون سنين معاً بسلام. وإذ تراهم جميعاً في صف، فلا يمكنك ان تندس بينهم. ينظر الليرز للبنيتس انهم من اصول مختلفة جداً وان عاداتهم تتجاوز جدرانهم، وكان عليهم أن يجدوا لانفسهم مكاناً والبنتيس يلتقون بليرز الاماكن المشرقة ولكن العفنة أو بليرز الاكواخ الصغيرة شديدو الحساسية وسوء الظن. الوضع الحقيقي لليندرا موضوع نقاش دائم. البنتيس يعتقدون بانهم روح المدينة، حتى وإن وصلوها في السنة الماضية. ويعتقدون بانهم سيحملون ليندرا معهم حينما يهاجرون.

الليرز يعتبرون البنتيس ضيوفاً مزعجين عابرين ومتطفلين. وبان ليندرا الحقيقية تمنح الجميع ماتمتلك، وليندرا التي كانت هنا قبل وصول اولاء البنتيس الزائلين، هي التي ستبقى بعد ان يرحل الجميع.

نوعا الآلهة يشتركون بهذا: إنهم ينتقدون كل ما يحدث في العائلة او في المدينة، البنيتس يخرجون العجائز والجدود الكبار والعمات والخالات المعمرات. بمعنى آخر، عائلة الزمن الذي مر. الليرز يتحدثون عن الظاهرة قبل ان يتم التدمير، ولكن

مكتبة الفكر الجديد

هذا لايعني انهم يعيشون على الذكريات وحدها: هم يحلمون طيلة النهار يفكرون بعمل الاطفال وبحياتهم في المستقبل وعندما يكبرون، او بما ستصبح عليه هذه الدار وفي مثل هذه الجيرة (الليرز) إذا ما وقعت بأيد طيبة.

إذا أصغيت جيداً، وبخاصة في الليل، ستسمعهم في بيوت ليندرا يقاطع واحدهم الآخر، يغيظ واحدهم الآخر، ستسمعهم يهزؤون او يسخرون بضحك مكتوم.

سجن والموتى ١

في ميلانيا، وكلما دخلت الميدان، تجد نفسك مستمعاً لحوار: الجندي النفاج والمتطفل يأتيان من باب، يلتقيان بالمتشرد الشاب والمومس: او ان أباً تاعساً يقذف بتهديداته الاخيرة من عتبة بيته على ابنته الغانية، فيقاطعه الخادم الاحمق الذي يحمل خبراً الى سمسارتها. تعود إلى مالينا بعد سنين وتجد الحوار نفسه مايزال مستمراً. في ذلك الوقت يكون المتطفل ميتاً، وكذلك المتشرد والاب التاعس، ولكن الجندي النفاج والفتاة الغانية والخادم الأحمق قد اتخذوا أماكنهم وقد تبادلوا الأمكنه مع المنافق والمؤتمن والمنجم. سكان ميلاينا يجددون أنفسهم، المشاركون في الحوار يموتون الواحد بعد الآخر واثناء ذلك يولد الذين يأخذون مكانهم، بعض في هذه الوجبه.. وبعض في تلك.

عندما يغير الواحد دوره أو يترك الميدان الى الأبد أو يدخله لاول مرة، فهنالك تجري سلسلة من التغيّرات، حتى يتم إعادة

مكتبة الفكر الجديد

الدورة كلها، ولكن في هذا الوقت يستمر الرجل العجوز الغاضب على إجابة الخادم النبيهة، غير المتأكدة، والملحفه بمتابعة الشباب الذي يوُرَث. كما تظل المربية تعزي ربيبتها، وإن لم يحتفظ اي منهم بعينيه اللتين كانتا له من قبل ولا بالصوت نفسه.

يحدث أحيانا ان رجلاً مفرداً يتخذ له مكاناً في دورتين أو اكثر في وقت واحد. طاغية ومحسناً ورسولاً ـ أو ان واحداً يضاعف مرتين او عدة مرات، حتى يصير مائة شخص أو ألفاً. من اهل مالينا: ثلاثة آلاف من المنافقين، ثلاثون الف طفيلي، مائة الف ابن ملك سقطوا في حضيض الناس بانتظار من يميزهم.

وإذ يمضى الزمن فان أفراد هذه الدورات لايعودون كما كانوا من قبل تماما فما هو اكيد، ان الفعل الذي مضوا فيه الى المستقبل خلال المكائد والمعجزات يؤدي الى نوع من الفضيحة في النهاية، وهذه تظل تقترب حتى حين تشتد المكيدة أكثر فأكثر وتزداد العقبات. إذا نظرت الى الميدان في لحظات متعاقبة، تسمع الحوار يتغير من فصل الى فصل وإن كانت حياة اهل ميلاينا من القصر حد انهم لايشعرون بذلك.

مكتبة الفكر الجديد

ماركو بولو يصف جسراً، حجراً فحجراً. فسأله قبلاي خان: «ولكن اي حجر ذلك الذي يستند عليه الجسر؟»

فاجابه ماركو: «لايستند الجسر على حجر واحدٍ او سواه، ولكنه مسنود بكل القوس الذي أقيم به.»

يبقى قبلاي خان صامتاً، يفكّر، ثم يضيف: «لماذا تتكلم عن الحجر إذن مادام القوس هو الذي يعنيني؟»

اجاب بولو: «لاقوس بلا حجر »

مكتبة الفكر الجديد

٦

مكتبة
الفكر
الجديد

سأل قبلاي خان ماركو بولو: «هل رأيت مدينة تشبه هذه من قبل؟» وبسط يده ذات الخواتم من وراء ظلة يخته الملكي وهو يشير الى أقواس القناطر فوق القنوات وقصور الامراء التي تنغمس سلالم ابوابها المرمرية في الماء واضواء المراكب وهي تتسارع متعرجة مع حركة مجاذيف الزوارق العجلة التي افرغت سلال غلالها في ساحة السوق، وقد بدت كل الشرفات والارصفة والسداد وابراج الاجراس، وحدائق الجزيرة تزداد الآن خضرة في رمادية ذلك المدى المسائي الذي يوصل الجزيرة بالبحر.

كان الامبراطور يصحبه صفيه الأجنبي، يزور كن سائي العاصمة القديمة للأسر الحاكمة المخلوعة، واخر لؤلؤة وضعت في تاج الامبراطور. وأعاد قبلاي سؤاله لماركو: «هل رأيت مدينة تشبه هذه من قبل؟».. أجابه ماركو: «كلا ياسيدي، لم أتخيل مدينة ممكنة الوجود مثل هذه... حاول الامبراطور ان ينفذ نظرته في عيني ماركو، فخفض الاجنبي نظره. ظل قبلاي صامتاً طيلة ذلك النهار.

بعد غروب الشمس وعلى مدارج البلاط، شرح للحاكم الكبير نتائج بعثاته. كحاكم، استخلص الخان من رحلة يومه هذه الحكاية بعينين نصف مغمضتين والى ان بدرت تثاؤبة منه، وهي علامة لحاشيته ان يوقدو المشاعل التي تتقدم الامبراطور الى سرادق النوم في ليالي آب لكن قبلاي هذه المرة لم يبدو راغباً بالاستسلام للتعب. أكد على ماركو: «قص لي حكاية اخرى.»

ـ تغادر ذلك المكان وتركب لثلاثة ايام بين الشمال الشرقي والشرق برياح شمالية شرقية.» وراح ماركو يتذكر، ثم قال معددا اسماء وعادات وسلع اراض كثيرة. يمكن وصف ذخيرة ماركو بانها

مكتبة الفكر الجديد

لاتنفد. ولكنه الآن صار الرجل الذي عليه ان يستسلم.

انكشف الفجر، حين قال، : «سيدي لقد اخبرتك بكل شيء عن المدن التي اعرف.»

«ماتزال هناك مدينة لم تخبرني عنها.»

أحنى ماركو رأسه.

ـ «البندقية»

ابتسم ماركو يولو: «عن اي سواها تظنني قد تكلمت؟»

لم يعره الامبراطور اهتماماً واكمل قوله السابق: «وحتى اني لم اسمعك تذكر ذلك الاسم.. قال ماركو: «كلما وصفت مدينة، فأنا أقول شيئاً عن البندقية.»

ـ «حين اسألك عن مدن اخرى فهذا يعني اني اريد ان اسمع عن تلك المدن. وعن البندقية حين أسألك عن البندقية.»

ـ «لكي، اوضح مزايا المدن الاخرى، علي ان اتكلم عن المدينة الاولى التي هي ابداً واضحة. تلك، بالنسبة لي، هي البندقية.»

ـ «إذن عليك ان تبدأ كل حكاية من حكايات اسفارك من نقطة ارتحالك، واصفاً البندقية كما هي، كلها، لاتحذف شيئاً مما تتذكره منها.»

تغضن وجه البحيرة، انعكس نحاس بلاط سونج القديم في الماء يتلامع مثل اوراق طافية قال ماركو يولو: حين تقيد صور الذاكرة بكلمات، فانها تمحي. واراني خائفاً من ضياع البندقية كلها مرة واحدة، إذا ماتحدثت عنها. وربما، وأنا اتكلم عن مدن اخرى، سأضيعها شيئاً بعد شيء.»

مكتبة الفكر الجديد

مدن تجارية

في ازميرالد، مدينة الماء، شبكة من قنوات وشبكة من شوارع تُنسَجَ معاً وتتداخل بعضها في بعض وان تمضي من مكان الى آخر. فلك الخيار دائماً بين الارض الزورق: ومادامت اقصر مسافة بين نقطتين في ارميرالد ليست الخط المستقيم ولكن المتعرج الذي يتشعب في دروب تتلوى على رسلها. والدروب التي تفتح لكل عابر ليست ابداً دربين ولكنها دروب كثيرة تزداد اكثر لاولئك الذي يتناوبون شدّ الحبل في الزورق، مع اولئك الذين على اليابسة.

لذا فاهل ازميرالدا في منجى من سأم رؤية الشورع نفسها كل يوم. وليس هذا كل شيء: البديل هو فترة صعود المدرجات والنزول الى اليابسة، الى الجسور المقوسة والشوارع المعلقة تصل بين شظايا الممرات المختلفة العالية او التي على الارض، كل واحد من سكانها يتمتع كل يوم مسلك جديد للوصول الى الأمكنة نفسها. اكثر الحيوات استقراراً وهدوءاً في ازميرالدا، تلك التي تقضي بلا تكرار. الحيوات لسرية والمليئة بالمامرة، هنا كما في اي مكان، هي التي تواجه حواجز اكبر. قطط ازميرالدا لصوصها، العشاق غير الشرعيين، يتحركون على طرق متقطعه، اكثر ارتفاعاً من سواهـا، ويهبطون من سطح شرفه، ينحدرون على الميازيب بحركات اكروباتية. في الأسفل تجري الفئران في عتمة المجاري، واحدة وراء الاخرى، معاً والمتامرين والمهربين:

مكتبة الفكر الجديد

انهم يتلصصون من «المنهولات» وانابيب المجاري وينزلقون عبر خنادق ذات قاعين من مَخْفىٰ الى آخر، يسحبون كسراً من الجبن، بضائع مهربة، براميل صغيرة من البارود، ويجتازون كثافة المدينة، ينفذون من درجات المرات تحت الارض.»

خارطة ازميرالد تضمّ كل هذه الطرق، سائلة وصلبة، بيّنةً وخفية، ومعلّمة بالحبر الاحمر. الامر الاصعب، هو ان تثبت على الخارطة دروب العصافير والتي تشق طريقها في الهواء، فوق السطوح، وتهبط في ممر تتقاطع معه اجنحتها الساكنة، مَنْقضةً لازدراد بعوضه، ملتفة كالحلزون الى اعلى تخربش برجاً، وتتسلط من كل نقط في طرقها الهوائية على كل نقاط المدينة.

٤ . سجن وعيون

حين تصل فيليس تؤخذ برؤية الجسور على القنوات، كل جسر لايشبه الجسور الاخرىٰ، مقوسة و مغطاة، على اعمدة او على مراكب، معلقة ذات درابزينات مزخرفة وشبابيك تطل على الشوارع مقضّبة باماليد من حجر، باشكال مغربية، ونوافذ اخرى مستدقة الاقواس مدببة، تعلوها كوى هلاليه او ورود من زجاج ملون. وكم هي انواع الارصفة التي تغطي الارض هناك: صخر املس بلاط، حصى، قرميد ازرق وابيض في كل خطوة تخطوها تدهشك المدينة بمرأى. شجيرة جذلة تطل من وراء جدار مدينة محصنة تماثيل ثلاث ملكات على افريز، وقبة

مكتبة الفكر الجديد

تصحبها ثلاث قباب صغيرة تحيط ببرج. حينها ستصيح اعجاباً: «هنيئاً لمن تظل فيليس امام بصره كل يوم. ومن لايقاطعه شيء عن رؤية مافيها.»

وتحس بالأسى لانك غادرت المدينة ولأن مشاهدها خفيت عن عينيك وقد ابتعدت، ويحدث كثيراً انك تبقى في فيليس بدلاً من ان تغادرها، وتقضي بقية عمرك فيها. وفي حال بقائك سرعان ماتتلاشى المدينة امام عينيك، النوافذ ذات الورد تختفي، التماثيل على الافاريز تختفي، وتختفي القباب. ومثل اي من اهل فيليس، تتبع خطوطاً متعرجة من شارع الى آخر مميزاً رقاع الشمس من رقاع الظل، باب هنا، سلم هناك، دكة تضع عليها سلتك، حفره تزل بها قدمك أن غفلت وما بقي في المدينة واضح. فيليس فراغ تمتد فيه الدروب بين نقاط معلقة في الفضاء. هنالك أقصر طريق يوصلك الى خيمة تاجر معين، وتتجنب فيه شباك دائن معين، خطواتك فيها لاتتبع ماهو خارج عينيك ولكن مافي داخلها، مدفوناً أو ممحواً. وإذا ما بدا احد ممرين فوق تلك القناطر اكثر ابهاجاً، فذلك لأن فتاةً قبل ثلاثين سنة قد مرت عليه بأكمام واسعة مخرمة، أو لأن ذلك الممر فوق القناطر يلتقط النور في ساعة معينة، وذلك الممر على القناطر يفلت من عينيك ولا تتذكر اين كان. ملايين العيون تنظر للنوافذ وللقناطر، ولشجيرات الأصف كأنها، تفتش عن شيء في صفحة بيضاء. كثيرة هي المدن التي تشبه فيليس والتي تفلت من نظر الجميع، إلا الذي يلتقطها بعينيه صدفةً.

مكتبة الفكر الجديد

مدن وأسماء ٣

ظلّت بيرها زمناً طويلا محصنة على منحدرات الخليج، لها نوافذ عالية وأبراج مغلقة مثل كرة، فيها ميدان مركزي عميق كبئر، وبئر في وسط الميدان. انا لم أرها. هي واحدة من مدن كثيرة لم أصلها، انما سحرني اسمها: يوفراسيا اوديل، ماركارا، كيتوليا، بيرها، كل تتخذ مكانها بين تلك، وكل واحدة تختلف عن كل من تلك المدن وتشبه كلاً منها، ولا تخطؤها عين العقل.

جاء اليوم الذي اوصلتني أسفاري فيه الى بيرها. وحالما وضعت قدمي هناك، نسيت كلما ماتصورته من قبل، بيرها صارت كما هي يبرها، وفكرت.. أعرف ان البحر والمدينة واضحان، او ان المدينة تقبع خلف كتف الساحل الوطيء المتحدر وان الشوارع طويلة ومستقيمة، والدور ملتمة في فسح غير مرتفعة وتفصلها مسافات مكشوفة واكوام اخشاب مقطعة ونشّارات تحرك مضخات الماء.من تلك اللحظة صار يلوح هذا المشهد فوق اسم بيرها، هذا الضوء، هذا الازيز، هذا الهواء الذي يتطاير فيه غبار أصفر: واضح ان الاسم بيرها يعني هذا ولا يمكن أن يعني شيئاً آخر. إن مسرح عقلي يجمع عدداً كبيراً من مدن لم أرها، ولن أراها يوماً، اسماء تحمل معها هيئة او قطعة او وهجاً من شكل تخيلته: كيتوليا، اوديل، يوفراسيا، ماركارا.

المدينة التي ترتفع على الخليج ماتزال هناك ايضاً بميدانه الذي يحيط بالبئر، ولكني لم أعد قادراً على أن اسميها، ولا اتذكر كيف منحتها من قبل اسماً كان يعني شيئاً مختلفاً تماماً

مكتبة الفكر الجديد

مدن والموتى ٢

في كل اسفاري لم أخاطر فاصل مدينة مثل أدلما. كان الوقت أصيلاً حين رسوت هناك. وعلى الرصيف كان البحار الذي أمسك بالحبل وشده بمربط المركب، يشبه الرجل الذي اصطحبني ومات. كان وقت بيع الأسماك بالجملة وكان رجل عجوز يحمل سلة من قنافذ البحر على عربة، أظنني قد ميزته، حين التفت اليه، اختفى في زقاق، ولكني ادركت انه يشبه صياد سمك، كان عجوزاً اذ كنت طفلاً، ولم يعد بين الاحياء. غلبني الهم وأنا أرى حال من اسقطته الحمى على التراب، غطاء على رأسه، نمولحيتي مثل هذا. ابعدت نظري عنه، لم أعد اجرؤ على النظر في وجه أحد.

فكرت: «إذا كانت مدينة قد لاحت لي في حلم. فكيف أواجه موتاها وحدهم؟ الحلم يرعبني. ان كانت مدينة حقيقية، يسكنها ناس احياء، فانا احتاج فقط للنظر اليهم وسيختفي الشبه، ستظهر وجوه غريبة تحمل همها. في كل الاحوال الأفضل لي دائماً الا اشدد التحديق فيهم.

كانت بائعة الخضروات تزن كرنباً وتضعه في سلة أدلتها فتاة من الشرفة بخيط إليها: كانت الفتاة شبيهة واحدةٍ في قريتي جنت حباً وقتلت نفسها. رفعت بائعة الخضار راسها، كانت جدتي.

فكرت: «لقد وصلت في تلك اللحظة من الحياة التي يبدو، من الناس الذين عرفت، عدد الموتى يغطي عدد الاحياء. والعقل

مكتبة الفكر الجديد

يرفض تقبل وجوه اخرى أو تفسيرات اخرى. في كل وجه تواجهه ترتسم الأشكال القديمة، وتجعل لكل واحد منهم القناع الذي يلائمه اكثر من غيره.»

خط من عمال السفن، يتسلقون السلالم، لقد اختفت وجوههم تحت السقيفة والبراميل، اختفت وجوههم في قلانس جلابيبهم. لقد استقاموا الآن وساميزهم»

فكرت بخوف ونفاد صبر ولكني لم ارفع عيني عنهم، لواني ادرت نظري قليلاً الى الزحام الذي ملأ الشوارع الضيقة، لداهمتني وجوه غير متوقعة، تعاود الظهور من زمان بعيد، تحدق الي كما لو كانت تطلب مني التعرف بها، أو التعرف بي، كما لوانها تعرفت بي الآن. ربما كنت انا أيضاً، بالنسبة لها اشبه شخصاً آخر مات. لقد وصلت ادلما وكنت واحداً منهم، انتقلت الى جانبهم، وامتصتني تلك المشكاة من العيون والغضون والتكشيرات.

فكرت: «ربما كانت ادلما المدينة التي تصلها وانت تموت، او حيث كل يجد مرةً اخرى الناس الذين تعرف بهم. هذا يعني اني، أيضاً، ميت. فكرت:

هذا يعني ان العالم الآخر غير سعيد.

مدن والسماء ١

في يودوكسيا، التي تمتد الى الاعلى والى أدنى بأزقة ملتوية، وسلالم وطرق مغلقة النهايات، وزرائب. هنالك سجادة محفوظة

مكتبة الفكر الجديد

يمكنك أن ترى فيها شكل المدينة الحقيقي للوهلة الاولى، يبدو تصميم تلك السجادة اقل شبها من أي شيء آخر بيو دوكسيا فهي معروضة بحركات متناسقة تتكرر مقاطعها في خطوط مستقيمة. ودائرية، تتداخل ببراعة في مساحات لونية. تكرار يمكن تتبعة خلال لحمتها كلها ولكن إذا توقفت وتفحصتها بعناية، ستكون مقتنعاً بان كل مكان فيها يشير إلى مكان في المدينة، وان كل الاشياء التي تحتويها المدينة قد تضمنتها نقوش تلك السجادة، وقد رتبت حسب صلتها الحقيقية، والتي تفلت من عينيك في خضم الزحام والتدافع والفوضى. يودوكسيا كلها فوضى، البغال تنهق، بقع السناج، رائحة السمك هي الواضحة في المرأى الناقص الذي تلتقطه منها. ولكن السجادة تظهر ان هناك نقطة تكشف المدينة منها أجزاءها الحقيقية، يتجلى منها تصميمها الهندسي ودقائق مضمونها.

سهل أن تضيع في يودوكسيا: لكن عندما تثبت وتحدق في السجادة، تدرك الشارع الذي تبحث عنه بصورة خيط قرمزي. نيلي، أو انه خيط مغناطيسي يجتذبك الى عقدة واسعة الى موضع ارجواني حوله حد واضح، تلك هي منطقتك الحقيقية كل واحد من أهل يودوكسيا يقارن نظام السجادة الثابت بصورة المدينة في ذهنه، ذلك هم شخصي، وكل واحد منهم يجد جواباً، هو قصة حياته، أو هو التواءات القدر. سُئِلَ عرّاف عن الصلة الغامضة بين موضوعين جد مختلفين مثل السجادة والمدينة. فأجاب العراف، أحد الموضوعين يمتلك الشكل الذي اعطته الآلهة للسماء ذات النجوم والفلك الذي تجري فيه العوالم، الآخر انعكاس له تقريباً، مثل اي شيء من خلق البشر.

مكتبة الفكر الجديد

ظل العراف الكاهن زمناً طويلاً مؤمناً بان العناصر المنسجمة في السجادة من أصل الهي، وكان يؤول اعتقاده للناس، ما ابدى احد اعتراضاً على تأويله. لكنك بطريقة مشابهة لهذه تصل الى نتيجة مناقضةٍ. تلك هي ان خارطة الكون الحقيقية هي مدينة يودوكسيا، كما هي تماماً، بقعة ارضٍ تمددت دون ان تتخذ شكلاً، بشوارع معقوفة ودور تتكيء الواحدة على الاخرى وسط سحابة من غبار ونيران وصرخات في الظلام.

مكتبة الفكر الجديد

إذن فرحلتك كانت حقا رحلة في الذاكرة!» قال الخان العظيم وقد جلس يرهف السمع بانتباه جاد وهو يلتقط لحظة أسى في كلام ماركو، وقال بعجب: «لقد اوغلت في الابتعاد لتتخلص من عبء الحنين، وقد عدت من اسفارك بمركب من احزان!» ثم أضاف ساخراً: «هذه، إذا اردت الحقيقة، مشتريات صغيرة بالنسبة لتاجر «سيرنيسا»!

كان هذا غرض قبلاي من اسئلته لماركو عن الماضي والمستقبل. ظل ساعة كاملة يسلي نفسه به مثل قطة تلتذ بجرذ، وأخيراً هجم على ماركو، طرحه وراسه الى الحائط، وضع ركبته فوق صدر ماركو: «أنت، انت، اعترف بما تخفيه، بما فيك من مشاعر، نِعمَ؟ أو مراثٍ!»

ربما كانت هذه الكلمات والافعال مجرد خيالات مرت بينما هما صامتان وبلا حراك، يراقبان الدخان يتصاعد بطيئاً من غليونيهما. السحابة تختفي احياناً إثر هبة ريح، او تظل متدلية في سكون الهواء، والجواب في تلك السحابة.

وحين أزاحت هبة ريح الدخان، فكر ماركو بالضباب الذي يغطي مدى البحر وسلاسل الجبال، والذي حين يذوب يترك الهواء جافاً وشفّافاً يكشف عن مدن نائية. إن بصره يتمنى الوصول الى تلك المدن وراء ذلك الستار من الحوادث والسخريات، لكن شكل الأشياء يمكن أن يبدو افضل من بعد. كما ان السحابة التي كانت متعلقة قد هطلت فهي تكاد تمس الشفتين، رطبةً وبطيئة، وتشير الى رؤيا اخرى: نفخة الدخان المسود الذي لم ينتشر وغشاوة البخار على قير الشوارع. ليس ذلك ضباب الذاكرة المتغير الناشف الشفاف، بل هي خيوات متفحمة محروقة تشكل قشرة سوداء فوق المدينة. الاسفنجة مشبعة بمادة حية لم تعد تجري، العصارة الكثيفة للماضي والحاضر والمستقبل تشكل كيانات مرتبة في فوضى الحركة: هذا ماسوف تجده في آخر الرحلة.

مكتبة الفكر الجديد

٧

مكتبة
الفكر
الجديد

قبلاي : لا أعرف متىٰ امتلكت كل هذا الوقت حتىٰ زرت كل البلدان التي وصفتها لي . يبدو لي انك لم تبرح هذي الحديقة .

پولو : كل شيء أراه وأفعله يحقق معناه في فضاء عقلي حيث يحكم الهدوء ، مثلما في هذا المكان . الظلل نفسه والصمت الذي يقطعه حفيف الورق ، ذلك الصمت نفسه . في اللحظة التي يتركز فيها انتباهي وانعكس ، أجد نفسي مرة ثانية ، ودائماً ، في هذه الحديقة في هذه الساعة المسائية ، في حضرة جلالتك .

وهكذا أنا ، استمر دون لحظة توقّف ، أتحرك في نهر يخضّر من تماسيحه ، أو أحصي براميل السمك المملّح وهي تدلىٰ الى مخزن المؤن .

قبلاي : أنا أيضاً غير متأكد من وجودي هنا ، فأنا أجري بين الينابيع الرخامية ، أصغي الى اصداء تدفقّات الماء ، أو اني مترجّل مغطى بالعرق والدم على رأس جيش اقتحم الأقاليم التي تصفها ، أقطع أكفّ الاعداء المهاجمين ، مكتسحاً اسوار الحصون .

بولو : ربما تكون هذي الحديقة فقط في ظل أجفاننا المطبقة ، ولم نتوقف لا أنت من إثارة الغبار في ميادين المعارك ، ولا أنا من المقايضة لحمل أكياس الفلفل للأسواق البعيدة . ولكننا في كل وقت نغمض أعيننا نصف إغماض في وسط الضجيج والزحام ، نرتدي الثياب الحرير ، لنتفكّر فيما نراه ونعيشه ، لنستخلص النتائج ، نتأمل عن بعد .

قبلاي : ربما كان حوارنا هذا يجري بين شحاذَيْن يدعيان قبلاي خان وماركو بولو ، بينما هما ينخلان كوم قمامة ، فيخر جان القطع الصدئة ، الخرق والورق المهمل ، وقد سكرا بجرعات من الخمر

مكتبة الفكر الجديد

الرديء ، فهما يريان كل كنوز الشرق تشع حولهما .

پولو : لعل كل مابقي من العالم هو أرض يباب ، تغطيها أكوام النفايات ، او الحديقة المعلقة لبلاط الخان . انها أجفاننا التي تفصل بينهما ، ولكننا لا نستطيع معرفة ايهما داخل اجفاننا وايهما خارجهما .

مكتبة الفكر الجديد

حينما تجتاز النهر ، وحين تعبر الممرّ الجبلي ، تفاجؤك مدينة موريانا ، بواباتها المرمرية تلمع في الشمس ، أعمدتها المرجانية تسند القواصر المطعمة بالحجر الاخضر ،

كل فِلَلِها من زجاج ، كأحواض سمك ، تنعكس عليها ظلال فتيات يرقصن برقاق فضّية تحت ثريات بأشكال قناديل البحر .

إن لم تكن هذه رحلتك الاولى ، فستعرف في الحال ان مدناً مثل هذه لها وجه آخر :

وستأتي الى منظر الوجه المخفيّ لموريانا ، امتداد لرقعة من معدن صديء ، الواح خشب مثبتة بمسامير كبيرة الرؤوس ، انابيب سوّدها السخام ، ركام علب صفيح صغيرة ، جدران بلا نوافذ عليها علائم ممحوّه ، أطُرٌ لمقاعد محشوّة بالتبن ، حبال تصلح فقط لأن يشنق الانسان بها نفسه متدلياً من عارضة متآكلة .

من قسم الى آخر يبدو لك ان المدينة ستستمر في كشف ذخيرتها من الصور المجسمة المتزايدة ، لكنها بدلاً من ذلك تظل غير كثيفة وانها تتكون فقط من وجه ظاهر ووجه آخر خفي مثل قطعة من ورق ، لا يستطيع أيٌّ من وجهيها ان يبتعد عن الآخر ، وأيضاً لا يستطيع النظر اليه .

مكتبة الفكر الجديد

مدن وأسماء ٤

كالاريس المدينة المجيدة ، قد عصيت على التاريخ مرات عديدة ، تندثر ثم تنهض من جديد ، وفي كل مرة تحتفظ بكلاريس الاولى كانموذج باذخ لحاضرها وإذا قورن ذلك بحال المدينة اليوم ، فإنه يبعث الحسرة على كل نجم تلاشىٰ من نجومها .

في قرون دمارها ، وقد اخلاها من اهلها الطاعون ، يتضاءل ارتفاعها ، تنقص منه انهيارات عوارضها وأفاريزها . وبسبب تبدلات تضاريسها ، صدئت . وتوقفت الحياة فيها من ازمنة هجرانها أو افتقاد الناس الذين يرعونها . المدينة شيئاً فشيئاً ، امتلأت بالسكان مرة اخرىٰ كما لو انهم كانوا باقين فيها فتدفقوا من سراديبها وملاجئها حشوداً يتراكضون مثل الجرذان تدفعهم نار حماستهم للبحث والقرض وكذا للجمع والترميم مثل طيور تبني أعشاشاً . انهم يلتقطون كل شيء يمكن نقله من مكان ويضعونه في مكان آخر ليخدم غرضاً مختلفاً : الستائر المقصّبة تقصّر وتعلّق قطعاً ، وفي جرار رماد الموتى المرمرية يزرعون الريحان ، ويجعلونه من الحديد المزخرف حاملات وقود : يشوون عليها لحم القطط ، وعلى نار من خشب الزينة المطعم ضع كل هذه مع القطع الغريبة من بقايا كالاريس المهملة ، ومعها كل الأكواخ والزرائب والمجاري المهدمة واقفاص الارانب ، وستمتلك كلاريس اليوم شكلها .

ولعلنا الآن لا نفتقد شيئاً من كلاريس الباذخة الاولى . هي

مكتبة الفكر الجديد

موجودة كلها ، انما هي مرتبة بنظام آخر ، ليس أقل ملاءمة لسكنتها من الذي كان قبله .

أيام البؤس اعقبتها أزمنة مبهجة : الفيض الجديد جعل المدينة تزدحم بمواد جديدة ، بنايات واشياء ، بشر جديد ينهال عليها من خارجها ، لا شيء ، لا احد له صلة بكلاريس او بالكلاريسات السابقة . وكلما استقرت المدينة اكثر ، منتصرة في موقع واسم كلاريس الاولى ، كلما ادركت أكثر انها كانت تتحرك مبتعدة عنها . وبالرغم من فخرها بثرواتها الجديدة ، ففي قلبها شعور بانها مناقضة لنفسها الأخرى وبعيدة عنها ومغتصبة لمكانها . ثم أن الكسر المتبقية من تلك الاصيلة الفخمة ، والتي أُنْقِذَتْ وحُفِظَتْ بدافع حاجات غامضةٍ قد تغيّرت مرة اخرى . فقد حفظت اسفل اجراس زجاجية فوقها واجهات عرضٍ مقفلة وقد وضعت على وثار من قطيفة ، ليس ذلك لانهم سيستعملونها لغرض من اغراضهم ، ولكن الناس آرادوا ان يشيدوا من خلالها مدينة لا يعرف أحد عنها اليوم شيئاً .

أكثر تلفاً واكثر ازدهاراً ، هكذا تتوالى الاحوال في كلاريس ، إحصاءات السكان والضرائب تغيرت مرات عديدة . الاسم ، الموقع ، والاشياء صعبة الكسر ، هي التي بقيت . كل كلاريس جديدة تتصل مثل جسد حي ، بروائحها وانفاسها القديمة ، كسرا وموتى .

لا علم لاحد متى ارتفعت التيجان الكورنيثية على رؤوس اعمدتها : إلا ان واحداً من اهلها قيل انه شوهد منذ سنين عديدة ، واثناء ركضه وراء دجاجة ، رأى ذلك التاج يسند السلة التي تضع الدجاجات بيضها فيها ، ومن هناك نُقل هذا

مكتبة الفكر الجديد

التاج الى متحف التيجان ، ووضع في صف واحد من عيّنات اخرى .

لقد ضاع خط تاريخ المدينة ، فإن اول كلاريس وجدت ، كانت اعتقاداً واسع الانتشار بها ، دون اية براهين تؤكد وجودها . وان تيجان الاعمدة هذه يمكن ان تكون قد وجدت في ركض الدجاج قبل ان توجد في المعابد ، ويحتمل ان تكون جرار رماد الموتىٰ الرخامية قد زرعت بالريحان قبل ان تملأ بعظام الموتىٰ المؤكدة معرفته هو :

ان عدد الاشياء يتغير حسب الفراغ الذي يحدد لها . في احيان اخرىٰ يزداد بنوعٍ جديد من الاشياء يضاف اليه ، احياناً تتلف اشياء ولا يحل بديل محلها . القاعدة هي ان تخلط الاشياء في كل وقت . ثم تحاول عدّها من جديد .

ربما كانت كلاريس دائماً مجرد خليط لكسر وشظايا غير متجانسة أبداً .

مدن والموتى ٣

لا مدينة تزيد على يوسوبيا في ميلها للتمتع بالحياة والهرب من الهم . ولكي يجعلوا القفزة من الحياة للموت أخف أثراً ، فقد أقام السكان نسخة مماثلة لمدينتهم تحت الارض . كل الجثث التي تجف بهذه الطريقة تظل هياكل مغلّفة بجلد

مكتبة الفكر الجديد

أصفر ، تحمل الى تلك المدينة ، وتستمر بمواصلة اعمالها الاولى . ومن بين هذه الاعمال لحظات إراحة البال التي تتخذ المكان الاول في حياتهم :

فاكثر الجثث هناك تُجْلس على مقاعد حول موائد من رصاص ، أو توضع في هيئات راقصة او تُثبّتْ متخذةً هيئات عازفي بوق . ولكن كل التجارات ومهن كسب الرزق ، تظل هي الاخرىٰ جارية في بوسوبيا تحت الارض ، او في الاقل تلك التي تتطلبها مواصلة العيش هناك .

فالناس هناك ، يغلب عليهم الرضا اكثر من الإثارة . صانع الساعات بين كل ساعات مخازنه المتوقفة ، يضع صفحة اذنه على ساعة جده متلاشية الصوت ، حلاق بفرشاة ناشفة يمسح عظام وجنتي ممثل يتعلم دوره ، يدرس في وَقْب كبير الجوف ؛ فتاة بجمجمة ضاحكة تحلب جثة بقرةٍ صغيرة .

ولكي نتأكد من أن الكثيرين من الاحياء يريدون لهم مصيراً بعد الموت مختلفاً من ذلك الذي لهم في الحياة ، فإن مدينة الموتىٰ مزدحمة بمتصيدي اللعب الكبيرة برجال البورصة وعازفي الكمان ودوقات وقضاة وجنرالات اكثر مما تحتويه مدينة الاحياء .

مهنة صحبة الموتىٰ تحت الارض وتغيير أمكنتهم تعهد الى جمعية «الاخوة ذوي القلانس» ، لا احد سواهم يسمح له بالدخول الى يسوبيا الموتى ، وكل شيء عرف عن هذه المدينة ، عُرف عن طريق هؤلاء .

يقولون ان الجمعية نفسها توجد بين الموتىٰ وهي لا تخفق في تقديم يد العون ، الاخوة ذوو القلانس ، بعد موتهم سيمثلون

مكتبة الفكر الجديد

الدور نفسه في يوسوبيا الاخرىٰ . يُشاع عن البعض الذين ماتوا انهم استمروا على الصعود من مدينتهم الى فوق والنزول اليها . على اية حال ، نفوذ افراد الجمعية هذه كان واسعاً في يوسوبيا الاحياء .

يقولون انهم في كل مرة ينزلون فيها تحت الارض ، يجدون شيئاً قد تغير في يسوپيا السفلى ، الموتىٰ ينجزون تجديدات في مدينتهم ، هذه التغييرات ليست كثيرة ، لكن ماهو أكيد ، انها ثمرة التفكير الرصين لا النزوات العابرة . من سنة الى اخرىٰ ، يقولون ، تحول يسوپيا مدينة غير مدركة . ولكي يظل الاحياء مع الموتىٰ ، فهم يعملون أيّ شيء يقوله لهم الاخوة ذوو القلانس من بدع وغرائب الموتى . لذا فيوسوپيا الأحياء صارت تستنسخ صورتها تحت الارض .

يقولون ان هذا لم يبدأ حدوثه الآن ، والحقيقة هي ان الموتىٰ هم الذين شادوا يوسوپيا العليا على صورة مدينتهم . يقولون ان في المدينتين التوامين لم يعد أحد يعرف من هي المدينة الحيّة ومن منهما الميتة .

سحن والسماء ٢

هذا المعتقد يسود في بيروشيبا «بئر سبع» ، هنالك في السماء بيرشيبا اخرىٰ ، تستقر فيها الفضائل السامية للمدينة ورغابها ، وان بيرشيبا الأرضية تتخذ من تلك السماوية مثالاً لها ، وان المدينتين سيكونان يوماً مدينة واحدة .

الصورة المتوارثة عنها ، انها مدينة الذهب الخالص ، بأقفال من فضة وبوابات من الماس ، انها مدينة الجواهر ، مدرّجة

مكتبة الفكر الجديد

ومطعمة ؟ لقد انتج اقصى الجهد اقصى الثروة فيها . ولصدق إيمانهم هذا ، كان سكان بيرشيبا يحتفون بكل شيء يشير الى المدينة السماوية : فهم يجمعون المعادن الثمينة والاحجار الكريمة ، لقد تركوا كل اسراف في لهوٍ زائل وطوروا اشكالاً من الانسجام الهادىء .

إن اولاد السكان كذلك يعتقدون بان بيرشيبا اخرىٰ توجد تحت الارض ، هي مقر كل شيء لا قيمة له . وان همهم الدائم هو ان يمحوا من بيرشيبا كل صلة او شبه بالتوأم السفلي ، فتصوروا المدينة تحت الارض صناديق قمامة مقلوبة بدل طوابقها : قطع جبن ، ورق زَلِق دهني ، موازين سمك ، غسيل صحون ، سپاجتي لم يؤكل ، ضمادات قديمة متدلية . وحتىٰ ان مادتها معتمة كثيفة لينة ، ومثل صوت ينسكب من المجاري ، يمر طريق الآنية البشرية من حفرةٍ سوداء الى حفرة سوداء اخرىٰ حتىٰ تتدفق مقابل أدنىٰ طابق تحت أرضيّ ، ومن تلك الفقاعات المتراخية المستديرة في الاسفل ، طبقة فوق طبقة ترتفع مدينة من الفضلات بأبراج متثنيّة .

في معتقد بيرشيبا هذا عنصر حقيقة وعنصر خطأ . صحيح ان المدينة يصحبها تصوران عن نفسها . واحد سماوي و آخر جهنمي . ولكن اهل المدينة مخطئون في قناعتهم . فما يعشش في أعمق طبقة من ارض بيرشيبا هو مدينة صممها أعظم مهندسي العمارة المتنفذين ، وشيدت بأغلى المواد الموجودة في السوق ، بكل الوسائل والمكائن وأجهزة الدعم والتعشيق وثبتت بدعائم وأواصر ، ولها حافات تبرز من جميع الانابيب

مكتبة الفكر الجديد

والروافع ، والمدينة في كل هذا منكبة دائبة على تكديس قراريط كمالها . كانت بيرشيبا تأخذ ، حباً للفضيلة ، ما هو الآن جنون وحشي لتملأ به إناء فارغاً في نفسها ، المدينة لا تعرف ان لحظات متعتها المجيدة الوحيدة هي تلك التي تتحرر فيها من نفسها وتمتد ..

ما يزال فلك بيرشيبا يجتذب جسماً سماوياً يشع بكل جواهر المدينة ، وقد أحاط به جمعُ الأشياء المنبوذة ... قشارة بطاطا ، مظلات محطمة ، جوارب قديمة ، أغلفة علك ، تذاكر ترام ، مقارض أظافر ، مواد متصلبة متشابهة الحجوم وقشور بيض .

هذه هي المدينة السماوية وفي مذنبها الطويل يعلق الماضي سائباً ، يرتعد في الفضاء في ذلك الفعل الحر والبهيج لمواطني بيرشيبا ، المدينة التي لا تكون تعيسة وجشعة وماكرة إلا في اللحظات التي تتخلص من فضلاتها .

مدن مستمرة ١

مدينة ليونيا تجدد طرازها كل يوم : في كل صباح يستيقظ الناس بين فرش نظيفة ، مغسولة بصابون جديد لم يُغلَّفْ بعد ، يرتدون ملابس جديدة ، يتناولون من آخر طراز من الثلاجات علباً لم تفتح بعد ، يصغون الى اغنيات آخرِ لحظة من مذياع طرازِ يومه .

مكتبة الفكر الجديد

على الممرات الجانبية . بقايا ليونيا معبأة باكياس تنتظر شاحنة النفايات . نفاياتها ليست انابيب معجون الاسنان المبعّجة ، والمصابيح المحترقة ، والصحف وشتات الحاويات والاغلفة حسب ، لكنها أيضاً اجهزة الغلي والانسكلوبيديات والبيانوهات واطباق العشاء من الخزف الصيني . إنها ليست غنية أو كبيرة بتلك الاشياء التي تصنع يومياً ، وتباع والتي يمكن ان تقيس بها ثروة ليونيا ، ولكن بتلك الاشياء التي ترمى كل يوم لتخلى غرفة للأشياء الجديدة . وهنا يبدأ عجبك من مباهج ليونيا الحقيقية ، هل هي بالتمتع بالاشياء الجديدة والمختلفة ، ام هي بدلاً من ذلك بالفرح في نبذ وطرح المخلفات وتطهير نفسها من التلوث واللانقاء ؟ الحقيقة هي ان منظفي الشوارع يُرحب بهم مثلما يرحب بالملائكة ويحاط واجبهم ، ازاحة وجود الامس ، بصمت وإجلال مثل طقس ديني يوحي بالتقوى . ربما كان سر ذلك هو ان الاشياء التي تُرمى ، لن يفكر بها احد بعد ذلك .

لا احد يتساءل الى اين يحملون مرفوضاتهم كل يوم . خارج المدينة حتماً . ولكن المدينة في كل سنة تتسع وتمتد ، فيكون على منظفي الشوارع التراجع اكثر . حجم هذا الفائض يزداد والاحمال ترتفع وتكبر ، تصير طبقات تمتد على مساحة واسعة . اضافة لذلك ، كلما زادت قدرة ليونيا لصنع مواد جديدة ، كلما تحسن نوع القمامة من حيث مقاومتها للزمن ، ومن حيث عناصرها ، ومن حيث التخمر والاحتراق . البقايا العصيّة على التلف تحيط ليونيا ، تحميها من كل جانب سلسلة من جبال .

مكتبة الفكر الجديد

هذه هي النتيجة : كلما انتجت ليونيا بضاعةً اكثر ، كلما زادت اكداسها ، ميزان الماضي ملتحم بدرعٍ لا يمكن زحزحته ، وبينما تتجدد المدينة كل يوم ، فهي تصون كلَّ نفسها وتحتفظ بها في شكلها الثابت الوحيد : ماكنِس أمس يتكوّم فوق فضلات اليوم الذي قبله وعلى كل ايامها وسنوات عقودها التي انصرمت .

قمامة ليونيا سوف تغزو العالم إذا لم يخترق منظفو شوارع المدن الاخرىٰ ، ويمرّوا من خلال القشرة الاخيرة لأكوام أزبالها التي لا حدود لها ، وهم يدفعون جبال القمامة امامهم . قد يكون العالم كله ، وراء حدود ليونيا ، مغطىٰ الآن بحفر كبيرة للازبال ، كل واحدة تحيط بعاصمة ، والعاصمة من ورائها في هياج دائم .

وان الحدود بين المدن القريبة المعادية هي متاريس ، كسر الحصى في هذا الجانب تسند كسر الحصىٰ في الجانب الآخر ، تقفز اليها وتختلط بها .

كلما زاد ارتفاعها ، كلما صار أكبر خطر انهيار تلك الأشكال ، علب صغيرة ، أطرٌ قديمة قناني خمر لم تفتح ، وهذه اذا تدحرجت باتجاه ليونيا ، ستسحب معها كومة من فردات الاحذية ، تقاويم سنوات ماضية ، ازهار ذابلة ، وتُغْمَرُ المدينة بماضيها الخاص الذي حاولت سدى التخلص منه ، مختلطا بماضي المدن المجاورة الذي مايزال نظيفاً بالنسبة لماضيها . إن زلزالا سيسوّي سلسلة الجبال القذرة ، ماحياً كل أثرٍ من المدينة التي ترتدي دائماً ثياباً جديدة .

مكتبة الفكر الجديد

في المدن القريبة ، يقف المنظفون مستعدين دائماً ، ينتظرون ببلدوزراتهم لتسوية الأكوام ليدفعوها الى مناطق جديدة ، يوسعون المدينة يرفعون اكوامها ، فيسير منظفو الشوارع الجديدة الى مناطق أبعد .

مكتبة الفكر الجديد

بولو : لعل صفوف المنازل لا تطل إلا على بحيرة عقلنا .
قبلاي : ومهما نأت المداخل التي يأخذنا اليها المحاربون أو التجار فنحن نرسو مع أنفسنا في ذلك الظل الصامت ، ذلك الحوار في اوقات السكون ، هذا المساء الذي هو دائما نفس المساء .
بولو : إن لم يكن الافتراض المضاد صحيحاً ، فاولئك الذين يسعون في المخيمات والموانىء يوجدون فقط لاننا نحن الاثنين نفكر فيهم هنا ، وقد اطبقت عليهم أسيجة البامبو التي لاحراك لها منذ ابتدأ الزمان .
قبلاي خان : إن لم يكن هناك كدحٌ ، صرخات وأوجاع ، لما وجد النتن ، ولن يكون هناك غير شجرة الازالية
بولو : لو لم يكن عتالون ، قاطعو صخور ـ جامعو نفايات طباخون ينظفون مصابيح المطابخ ، نساء غسالات ينحنين على الحصى ، امهات يقلبن الرز وهن يرضعن اطفالهن ، لو لم يوجد هؤلاء ، انهم يوجدون فقط لاننا نفكر بهم .
قبلاي : للحقيقة ، انا لا افكر بهم .
بولو : بالنسبة لي ، لا ادري هذا الحدس يلائم مقاصدنا بدونهم ، لا يمكن ان نظل نتأرجح هنا ، مصانين في اراجيحنا الشبكية .
بولو : إذن وجب تنفيذ هذا الافتراض . ويكون الافتراض . الثاني هو الصحيح : هم الذين يوجدون ونحن لا .
قبلاي : لو كنا هنا ، لاثبتنا ذلك ، ولكننا لم نكن .
بولو : ولكننا في الحقيقة هنا .

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

٨

مكتبة
الفكر
الجديد

من أسفل عرش الخان العظيم يمتدّ ممشىً من القرميد المزخرف المطلي بالميناء ، ماركوبولو راوي الاخبار البعيدة ، نشر على ذلك الممشىً نماذج من السلع التي عاد بها من رحلته الى اطراف الامبراطورية :

درع ، صدفة بحرية ، جوزة هند ، مروحة .. ورتّب أشياءه بنظام خاص على خطوط القرميد الابيض والأسود . وهو يحرّكها ، يزيحها خطفاً في الوقت المناسب ، بحركات متقنة ، محاولاً ان يصور للامبراطور بذلك ، تعاقب اسفاره ، أحوال الامبراطورية وامتيازات المتنفذين في الأقاليم النائية .

كان قبلاي لاعب شطرنج بارع ، فتابع حركات ماركو ولاحظ قطعاً معينةً تحتوي ، أو تبعد عما ، يجاورهامن القطع الاخرىٰ . وانها كانت تتحرك على خطوط معينة دون اهتمام باختلاف اشكالها . استطاع ان يلحظ تغيير مكان الواحدة منها باحترام وانتقالها الى مكان الاخرىٰ على ذلك المرمر .

فكّر : «اذا كانت كل مدينة تشبه لعبة شطرنج ، فان اليوم الذي اتعلم فيه قواعد اللعب ، سيكون اليوم الذي امتلك فيه امبراطوريتي ، حتى لو لم انجح في معرفة كل المدن التي فيها .»

عملياً ، لم يكن مما يسند أقوال ماركو أن يستعين بكل هذه التحف ، فلوحة الشطرنج ستدّ بقطعها المميزة . عليهم ان يعطوا لكل قطعة معنىً ملائماً : فارس يقف ليدل على فارس حقيقي او على سلسلة عربات ، او جيش في مسير ، او نصب تذكاري لفارس الملكة يمكن ان تكون سيدة تنظر من شرفتها الى اسفل فترىٰ نافورة ،

مكتبة الفكر الجديد

كنيسة ذات قبّة مدبّبة وشجرة سفرجل ... وهو يعود من مهمته الأخيرة ، وجدماركو بولو الخان ينتظره جالساً الى رقعة شطرنج . وباشارة منه دعا فتى البندقية ليجلس قبالته ويصف برجال الشطرنج فقط المدن التي زارها .

ظل ماركو ثابت الجنان . رجال شطرنج الخان كانوا قطعاً ضخاماً من العاج الصقيل :

غيّر ، على اللوح ، مواقع الرخوخ الضخمة والفرسان العابسين ، يجمع اسراب من البيادق ، يسحبها باستقامة او خلال طرق منحنية تمثل حركة تقدم الملكة . ماركو اعاد خلق الملامح ومساحات الابيض والاسود في الليالي المقمرة .

وهو يتأمل الضواحي المكشوفة ، تبيّن قبلاي ذلك النظام الواضح الذي يسند تلك المدن والقوانين التي تقرّر كيف تنشأ ، وتتخذ شكلاً ، وتزدهر ، وتكيف نفسها وفق المواسم ، من ثم كيف تكتئب وتهوي خرائباً .

احياناً يفكر انه يوشك ان يكتشف نظاماً متكاملاً ومنسجماً وراء العيوب والخلافات التي لا تنتهي ، انما ليس هناك انموذج يمكن مقارنته بلعبة الشطرنج . ربما ، وبدلاً من أن يعصر رأسه كي يتذكر ابدت له قطع العاج عوناً قليلاً ، فأبانت له الرؤى التي لفّها النسيان .

هي تكفي لإتمام لعبة حسب اصول اللعب ، وباعتبار كل ولاية متقدمة على اللوح واحدة من الاشكال التي لا حصر لها والتي يجمعها النظام ويحطمها .

لن يرسل الخان ماركو بولو بعد الآن الى اماكن نائية : احتفظ به يلعب لعبات شطرنج لا تنتهي . معرفة الامبراطورية مخفية في المجال

مكتبة الفكر الجديد

الذي يرسمه الخط المنكسر، مخفية في المجال لحركات الفارس ، والطرق القطرية التي تفتحها هجمات الفيل ، وفي التقدم البطيء الحذر للملك والبيدق الرهينة ، وفي الصعدات والنزلات الشديدة في كل لعبة .

حاول الخان العظيم ان يركز على اللعبة : ولكن غرض اللعبة هو ما يزوغ عنه الآن . كل لعبة تنتهي بربح او خسارة ، ولكن ربح وخسارة ماذا ؟ ماهي الثوابت الحقيقية ؟ في كل ميتة تحت قدسي الملك ، يطرح الضحية جانباً بحركات الرابح ويظل هنالك مربع اسود أو أبيض . وبتجريد غزواته وتقليلها الى ماهو اساسي ، يصل قبلاي خان العملية القصوىٰ ، الغزوة النهائية التي تبدو فيها كنوز الامبراطورية متعددة الاشكال مجرّد اغلفة خادعة . لقد تضاءلت حدّ انها صارت مربعاً من خشب مستوٍ ، صارت الى لاشيء .

مكتبة الفكر الجديد

إيرين . المدينة التي تتضح لك اذا انحنيت عن حافة الهضبة ساعة تُوقدُ الاضواء فترى في الهواء الرطب لون الاستقرار الوردي منتشراً في كل المساحة التي تمتد اسفل الهضبة . هنالك النوافذ اكثر إدكاماً . يث تشفُ في الممرات المضاءة التي تشوبها عتمة . حيث تجتمع ظلال الحدائق وحيث ترتفع أبراج بعلائم من نار . وإذا كان المساء مُضبّا . فإن ضوءاً رجراجا يكبر كاسفنجة اسفل الأخاديد .

المسافرون على الهضبة . رعاة يدفعون قطعانهم . صيادو طيور يرقبون الاعشاش . نُسّاك يجمعون الاعشاب ويلتقطون ثماراً لم تنضج .

الجميع يرنون الى اسفل . يتحدثون عن إيرين . احيانا تجلب الريح اصوات موسيقى . طبول نحاسية وأبواق . وطبول النحاس والابواق تتفجر مفرقعات نارية عبر اضواء الاحتفال . في بعض الاوقات يتوالى رشق البنادق فيتفجر مخزن بارود أصفر في حرب اهلية اولئك يطلون من الاعالي يتساءلون عما يحدث في المدينة . ولا يدرون أمِمّا يسرُ او مما لا يسر ان يكون المرء في إيرين ذلك المساء . هذا لا يعني ان لديهم اية فكرة للذهاب هناك . فالطرق الملتوية المنحدرة الى الوادي . هي في كل احوالها سيئة . لكن إيرين مغناطيس يجذب عيون وأفكار الذين يظلون في الاعالي .

مكتبة الفكر الجديد

عند هذه النقطة ، كان قبلاي خان يتوقع ان يقول ماركو شيئاً عن إيرين مثلما تُرىٰ من داخلها . لكن ماركو لم يستطع ذلك ، لم ينجح في اكتشاف ايها هي المدينة التي يسميها اهل الهضبة إيرين . وليس ذلك الأمر مهماً كثيراً . فحيثما تنظر لايرين ، وانت في وسطها ستبدو مدينة مختلفة ، إيرين اسم لمدينة في البعيد . ان تصلها تتغيّرْ .

بالنسبة لاولئك الذين يمرون بها دون ان يدخلوها هي مدينة معينة ، وهي مدينة اخرىٰ بالنسبة لمن اصطادتهم شبكتها فلم يغادروها . هنالك المدينة التي تصلها للمرة الاولى ، وهنالك مدينة اخرىٰ هي تلك التي تغادرها ولن تعود اليها . كلٌ تستحق اسماً مختلفاً ، ربما انا الآخر قد تكلمت عن إيرين تحت أسماء اخرى وربما كان كلامي كله عن إيرين لا سواها

مدن والموتى ٤

ما يجعل ارجيا مختلفة عن المدن الاخرىٰ هو أن فيها تراباً بدلاً من الهواء . الشوارع ممتلئة تماماً بالقذارة ، الطين يغلف الغرف حتى السقوف ، فوق كل سلَم سلَم آخر يخالفه . فوق سطوح الدور تعلق طبقات من التضاريس الصخرية مثل سماوات ذات غيوم . نحن لا ندري إن كان سكنتها يقدرون على التجوال في المدينة عبر القنوات الدائمة والشروخ ، حيث

مكتبة الفكر الجديد

تلتوي الجذور : الرطوبة أتلفت اجساد الناس فافتقدوا قواهم ، وإن كان خيراً لكل واحد الاّ يظل ساكناً منكفئاً : أن يتحرك قليلا ، ولكن المدينة مظلمة على كل حال .

من اعلى هذا المكان ، لا ترى قطعة ارض البعض يقول : «ان المدينة هناك في الاسفل .» ولا يسعنا إلا تصديقهم . المكان مهجور في الليل ، تضع اذنك على الارض ، فتسمع احياناً صفقة باب يُغلق ..

مدن والسماء ٣

اولئك الذين يحملون يرون القليل من المدينة من وراء الاسيجة الخشبية . وسُتُر الخيش والسقالات والواقيات المعدنية والقناطر الخشبية التي تتدلى بحبال او المسندة بركائز ، ومن وراء كثير من السلالم والحوامل الخشبية .

إذا سالت : «لماذا استغرق بناء ثكلا كل هذا الزمن الطويل ؟» وبينما يستمر سكانها على تحريك روافعهم يصعدون مساحات من الخيش وينزلون اسلاك رصاص ، يحرّكون فرشاً طويلة عاليا سافلاً ، يجيء جواب السؤال :

«لكي لا يبدأ خرابها .». واذا سألت اذا ماكانوا يخشون ذلك ، نقلت سقالة وكادت المدينة تنكمش وتهوي قطعاً ، وقد اضافوا بسرعة وبهمس : «ليس المدينة وحدها .»

إذا لم تقتنع بالجواب ، يضع احدهم عينه على شق في

مكتبة الفكر الجديد

السياج ، فيرى ساحبات أخرى ، سقالة تعانق سقالةً اخرى ، اشعة تؤازر اشعة ، وتسال

«اي معنى للخراب عندكم» ؟

ـ «اي غاية لمدينة مهددة بالخراب غير ان تكون مدينة ؟»

ـ «ماهي الخطة التي يتّبعُها ، مخطط تصميمها ؟» فيجيبون : «سنريكها حالما ينتهي نهار العمل ، لا نستطيع إرباك عملنا الآن .»

يتوقف العمل في الغروب . يهبط الظلام فوق موقع البناء . فيشيرون الى مكان المدينة وفوقه السماء مليئة بالنجوم : «ذلك هو مخطط تصميمها .»

مدن مستمرة ٢

لو لم أقرأ اسم ترود مكتوباً على اوراق كبيرة حين وصلت اليها ، لظننت أني أهبط في المكان الذي اقلعت منه . الضواحي التي عبروا بي خلالها لا تختلف عن الاخرى وفيها البيوت ذاتها تلك المخضرة والصُفر . اتبع العلامات نفسها .

نعيد حول منابت الزهر نفسها وفي الميدان نفسه ، شوارع مركز المدينة تعرض البضائع ، الرزم ، تلك علائم لا تتغير ابداً . هذه هي المرة الاولى التي اجيء بها الى ترود ، ولكني قد عرفت الفندق الذي ينبغي ان احل فيه ، وقد سمعت وتحدثت مع باعة ومشتري العُدَدِ ، قضيت اياماً اخرى مماثلة ، انظر خلال

مكتبة الفكر الجديد

الاقداح نفسها الى تلك النقاط التي وسط قيعانها .

«لماذا جئت الى تروود ؟» سألت نفسي واردت أن اغادرها . فقالوا لي :

«يمكنك ان تعاود إرتحالك متى شئت ، ولكن ستصل تروود اخرى مشابهة تماماً كل تفاصيلها مثل هذي التفاصيل . العالم تغطيه تروود واحدة لا تبدأ ولا تنتهي . الذي يتغير فقط هو اسم المكان .»

محن مخفية ا

في أولندا ، إذا ما مضيت بعدسة مكبرة ورحت تصطاد بأناة ، فقد ترى في مكان ما نقطةً ليست أكبر من رأس دبوس ، إذا ما نظرت اليها بلطف راحت تكبر حتى تتكشف داخلها

السطوح ، الهوائيات ، نور السماء ، الحدائق ، البحيرات ، الجداول تتقاطع وشوارعها ، الاكشاك في الميادين وخطوط سباق الخيل . تلك النقطة لا تستقر هناك ، بعد سنة تجدها بحجم نصف ليمونة ، ثم بحجم فطرةٍ ، ثم بحجم صحن حساء ، ثم تصبح بحجم مدينة كاملة مطبقة عليها المدينة الاولى . مدينة جديدة تشقّ طريقها قدماً في المدينة الاولى وتدفعها الى الخارج .

أولندا ليست المدينة الوحيدة التي تنمو في دوائر واحدة المركز ، مثل جذعِ شجرة ، كل سنة تضاف عليه حلقة جديدة .

مكتبة الفكر الجديد

لكن في مدن أخرىٰ يظل في المركز النطاق القديم الضيّق من الجدران والذي تنبثق منه رؤوس الابراج ، القلاع ، السطوح المغطاة بالقرميد ، القباب ، بينما المناطق الاخرىٰ الجديدة تنبسط حولها مثل نطاق سائب . ليستْ اولندا الجدران القديمة تتقدم حاملة المناطق الجديدة معها ، تتسع ، ولكنها تحتفظ بتناسبها.هي ذات أفقٍ يبدو أكثر سعة عند نهايات المدينة ، انها تحيط بالمناطق الاحدث قليلا والتي هي الاخرى نهضت على حافات المدينة فكانت أخف كثافةً لتصير سكناً لأفراد اخرين مايزالون يضغطون عليها من الداخل ، وهكذا يستمر الضغط يستمر حتىٰ يصل الى قلب المدينة .

اولندات جديدة تماماً أزهرت الواحدةُ من الاخرىٰ ، ومن هذه الحلقات البعيدة في داخلها تبدو الآن ،وإن تعذر تمييزها . ازدهارات لاولندا القادمة ولتلكم اللواتي سوف يأتين بعدها .

مكتبة الفكر الجديد

حاول الخان العظيم أن يتأمّل اللعبة جيداً ، ولكن سبب اللعبة ظل غائباً عنه . فنهاية كل لعبةٍ ربحٌ أو خسارة : لكن ربح أو خسارة ماذا ؟

ماهي ثوابتها ؟ بعد مقتل الملك وطرحه ارضاً بيد اللاعب ، يظل اللاشيء : مربعٌ اسود أو مربعٌ أبيض . بتعرية غزواته والتوصل إلى جوهرها ، وصل الخان الى فعل متطرّف ، الى الغزوة ذاتها ، والتي ليست مظاهر كنوز الامبراطورية فيها غير أغلفةٍ خدّاعه ، لقد تضاءلت الى مربع من خشب مستو .

بعد ذلك تكلم ماركو بولو : لوحةٌ لعبك ياسيدي ، مكوّنة من خشبتين : الأبنوس والقبقب . والمربع الذي كانت تتسلّط عليه نظرتك الساطعة ، مقطوع من حلقة جذع نمت في عام جفاف . ترى كيف تغيّرت أليافه ؟

هنا ، يمكن ان تخرج بنقطة واحدة بيّنة :

«زُعُمٌ حاول ان يتفتح في يوم مبكر من أيام الربيع ، ولكن ثلج الليل أوقفه .»

حتىٰ تلك اللحظة لم يكن الخان يدرك ان ذلك الاجنبي يعرف كيف يعبّر عن نفسه بطلاقة في لغته ، لكن هذه الطلاقة ليست هي التي أدهشته :

«هنا أشد كثافة ، لعله عشُّ جنين ، ليس دودة خشب ، لانه ، قد ظهر مرةً ، سوف يبدأ الحفر لو كان دودة خشب . لكنه يسروع فراشة تقضم الورق ، وسبب اختياره لتلك الشجرة هو لكي يطوح بها لاسواها . الحافّة مخدشة ، خدّشها قاطع الاخشاب بإزميلهِ كي تلتصق الدودة بالمربع الثاني ، وتبرز أكثر ...»

مكتبة الفكر الجديد

حيّر قبلاي نوع الاشياء التي يمكن أن تقرأ في قطعة صغيرة عمة وفارغة من الخشب ، لكن پولو بدأ يتكلم الآن عن الاكلاك حملة بجذوع الاشجار والتي تنحدر في الانهار ، عن الارصفة وعن نساء في النوافذ .

مكتبة الفكر الجديد

٩

مكتبة
الفكر
الجديد

اخذ الخان العظيم أطلس مرسومة عليه كل مدن الامبراطورية والاقاليم المجاورة لها ، بنايةً بنايةً وشارعاً شارعاً ، مع الجدران والانهار والجسور والموانيء والجروف الصخرية . هو يدرك من حكايات ماركو بولو ان من العبث توقع أنباء عن تلك الامكنة ، التي هو على علم كبير بها بسبب من ذلك : كيف ، في كمبالو عاصمة الصين تقف ثلاث مدن مربعة الواحدة داخل الاخرىٰ ، كل واحدة باربعة معابد واربعة ابواب تفتح حسب الفصول ؟ وكيف على جزيرة جاوة ، يثور الكركدن ويندفع بقرنة القاتل ، كيف تحمع اللآلىء على قاع المحيط بعيداً عن سواحل مالابار .

سأل قبلاي ماركو : «حين تعود الى الغرب ، هل ستعيد على شعبك الحكايات نفسها التي قصصتها علي ؟»

قال ماركو : «انا أحكي وأحكي إنما المستمع يحتفظ بالكلمات التي ينتظرها وحدها . وصفي للعالم ، ذلك الذي اعطيته كل سمعك هو شيء اقدمه لتجمعات محملي السفن واصحاب الجندولات في الشارع خارج بيتي يوم اعود ذلك وصف ووصف أخر ، ذلك الذي سأقوله أخر عمري إذا ما اقتادني سجيناً قراصنة جنوا ووضعوا على يدي الحديد ، في الزنزانة نفسها ، مع كاتب مغامرات . ليس الصوت هو الذي يوجه القصة ، الاذن هي التي تفعل ذلك .»

«في بعض الاوقات اشعر ان صوتك يصلني من بعيد ، بينما انا سجين البهرج ، وفي حاضر لا يصلح للعيش ، حيث البشر ، في كل اشكال تجمعاتهم ، وقد وصلوا نهاية دائرتهم ، ولا تصور لي في أي الاشكال الجديدة سيكونون . وأسمع من صوتك ، الاسباب الغامضة التي تجعل المدن تحيا ، وإذا ماتت مرةً ستعود الى الحياة

مكتبة الفكر الجديد

مرةً ثانية .»

كان لدى الخان العظيم أطلس تصور رسومه الكرة الارضية كلَّها ، قارة قارة ، وتظهر فيه الاقاليم البعيدة ، طرق السفن ، السواحل ، العواصم الكبرى والموانىء الكبيرة . استبقت عيناهُ عينيَ ماركو پولو الى الخرائط ليختبر معرفته . يميزُ المسافر مدينة القسطنطينية من ثلاثة شواطىء ترسم ممراً مائياً طويلاً ، خليجاً ضيقاً وبحراً مغلقاً . هو يتذكر ان القدس اقيمت على تلين غير متساويين في الارتفاع يقابل احدهما الآخر . وهو لا يتردد في الاشارة الى سمرقند وجنائنها .

بالنسبة لبقية المدن ، اعتمد وصفها على لفظ كلمة ، او يحدسها من معلومات ضئيلة . وهكذا عرف غرناطة لؤلؤة الخلفاء المخطّطة ، لوبيك الميناء الشمالي المنظم ، تمبوكتو السوداء بالابنوس والبيضاء بالعاج ، باريس حيث ملايين الناس يعودون «بعصي خبز» غلاظ .

برخارف ملونةٍ يصوّر الاطلس الاماكن المأهولة ذات الاشكال الغريبة : واحةٌ مخفيّة في طيّة صحراء فلا يخرج منها الا سعفات نخلة ، هي بالتأكيد نفتا . وقلعة وسط رمال متحركة وابقار تحدق في مراع ابقت عليها حركات المدّ ملحاً ، تُذكِّرُ بجبل سنت ميشيل ، وقصر بدلاً من أن يرتفع من جدران المدينة ضمته تلك المدينة بين جدرانها ،يمكن ان تكون اورتينو .

الاطلس يصور مدناً لا ماركو ولا الجغرافيون يعرفون مكان وجودها ، مع انها لا يمكن ان تفتقد بين اشكال المدن الممكنة : كوزكو على سهلٍ ساطعٍ متعدد الاقسام ، يعكس النظام الكامل لتجارتها ، مكسيكو الخضراء على البحيرة التي تسلط عليها قصر

مكتبة الفكر الجديد

موتزتروما والنوماجورد بقبابه الشبيهة بالمصابيح ، واللاسا التي ترتفع سطوحها البيضاء فوق السطح الغائم للعالم . لهذا ايضاً ، قال ماركو اسماً ، ليس مهما ماهو ذلك الاسم ، واقترح طريقاً للوصول اليه . فالمعروف ان اسماء القصور تتغير عدد اللغات الغريبة ، وان كل مكان يمكن الوصول اليه من امكنة اخرىٰ ، وبالطرق المختلفة وعبر الممرات المختلفة ، التي يسلكها الجميع : الراكبون منهم والذين يقودون أو يجذفون أو يطيرون .

«اظنك تفهم المدن على الاطلس افضل مما لو زرتها بشخصك .» قال الامبراطور لماركو وهو يلتقط صورةً من كتاب الخرائط . واجابه بولو :

«وانت مسافرٌ تغيب عنك الاختلافات . كل مدينة تتخذ لها شبهاً بالمدن الاخرىٰ الأمكنة تتبادل أشكالها ، نظمها وأبعادها . سحابة من غبار لا شكل لها تغطي القارات . أطلسك في الحقيقة يحتفظ بالاختلافات ؛ بتلك المجموعة من المميزات التي تشبه حروفاً في اسم .

الخان العظيم يمتلك أطلساً تجتمع فيه خرائط كل المدن : تلك التي تقوم جدرانها على اسس راسخة وتلك التي سوف توجد يوماً والتي ليس في موقعها اليوم الا فسحة لاوكار الارانب البرية .

ماركو بولو تصفح ذلك الكتاب ، فعرف جرش ، اور ، قرطاج واشار الى مكان الهبوط عند مصب السكاماندر حيث انتظرت سفن الأخيين عشر سنوات لتحمل المحاصرين الى بلادهم ، حتىٰ شدّ يوليسيس الخيل معاً وسحبها بالمرافع خلال بوابات سكاين .

وهو يتكلم عن طروادة ، اعطىٰ المدينة شكل القسطنطينية وقدّر

مكتبة الفكر الجديد

الحصار الذي فرضه محمد عليها بشهور طويلة وبذكاء مثل ذكاء بولسيس ، سحب سفنه في الليل الى الانهار ، من البوسفور الى القرن الذهبي وحاذىٰ پيرا وقلاطة . ومن خليط تلكما المدينتين ظهرت ثالثة ، لعل اسمها سان فرانسيسكو ، والتي تخترق البوابة الذهبية والخليج بجسور طويلة مضاءة وترسل قطارات تتسلق شوارعها المنحدرة . قد تزدهر هذه المدينة كعاصمة للباسفيك بعد الف سنة . بعد الحصار الطويل حصار الثلثمائة سنة ، السنوات التي ادىٰ فيها تنافس الجنس الاصفر والجنس الاسود ، والاحمر لأن يتلاشوا في السلالات الباقية للبيض وفي امبراطورية اوسع كثيراً من امبراطورية الخان .

للأطلس هذه المزايا : انه يكشف شكل المدن التي لا اشكال لها ولا أسماء . ففيه مدينة بشكل أمستردام ، شبه دائرة تواجه الشمال ، فيها قنوات واحدة المركز ـ انها للأمراء ، للأباطرة والنبلاء . هنالك مدينة في شكل يورك قائم بين المستنقعات حولها أسوارٌ عالية الابراج . هنالك مدينة في شكل نيوامستردام ، (امستردام الجديدة) معروفة باسم نيويورك ، محشوّة بأبراج من زجاجٍ وحديد ، تقع على جزيرة مستطيلة بين نهرين ، شوارعها مثل قنوات عميقةٍ ، مستقيمة كلها عدا برودوي .

مجموعة الاشكال تلك لا تنتهي ، حتىٰ يجد كل شكلٍ مدينته وستولدُ دائماً مدن جديدة . حين تتعب الأشكال من تنوّعها وتنعزل ، تبدأ نهايات المدن .

في الصفحات الاخيرة من الاطلس يبدو إنهمارٌ من بثٍ إذاعي لابداية له ولا نهاية . مدن في شكل لوس انجلس ، وفي شكل كيوتو أوساكا ، ومدن لا أشكال لها .

مكتبة الفكر الجديد

مثل لودوميا ، تقع الى جانب كل مدينة مدينةٌ أخرى ، يحمل سكانها الاسم نفسه :
المجاورة هذه هي لودوميا الموتى ، المقبرة . ولكن للودوميا مزيةٌ اخرى هي انها ليست مدينتين ولكن ثلاث مدن . هي . بايجاز . تشتمل على لودوميا ثالثة ، مدينة الذين لم يولدوا املاك المدينة المزدوجة معروفة جداً ، كلما كبرت مساحة وازدحمت بشرا ، كلما ازدادت قبورها وتجاوزت المقبرة أسوارها . شوارع لودوميا الموتى واسعةٌ تتسع لعربات حفّاري القبور ، والكثير من الابنية ، التي لا نوافذ لها ، تشرف على تلك الشوارع ولكن نمط الشوارع وتنظيم السكن يكرّران ماقي لودوميا الأحياء ، وفي كليهما تجتمع العوائل معاً وتزدحم في بعض أقسامها تتوالى الدور الواحدة فوق الاخرى . في الاماسي اللطيفة ، يقوم السكان الأحياء بزيارات للموتى ويسجلون اسماءهم على شواهدهم . هذه المدينة مثل مدينة الأحياء ، تكشف تاريخ الكدح والغضب والخداع والعواطف ، انما هنا صار كل شيء ضرورياً ولم يعد يتحكم به الحظ أو الابراج . هو الآن موضوع في نظام . ولكي تؤكد شعورها بذاتها صار لزاماً على لودمينا الأحياء أن تبحث في لودمينا الموتى عن تفسير لنفسها وإن اقتضى ذلك منها مغامرةً لتجد هناك ماقد تجده . هذه تفسيرات لاكثر من لودمينا واحدة . مدن مختلفة

مكتبة الفكر الجديد

كان ممكناً أن تكون ولم تكن أو هي أسباب غير كاملةٍ ، متناقضة أو مخيّبة .

لودوميا تؤكد سكناً واسعا مساوياً لما للودوميات التي لم تولد ، ومن الطبيعي ان الفراغ لا يتناسب وعدد سكانها الذي هو محدود جداً . لكن مادامت المنطقة خالية محاطة بطرْزٍ من تماثيل وخلجان وأخاديد ، وما دام ممكناً تصوّر حجم التي لم تولد ، كبيرة كالجرذ أو بحجم دود القز أو النمل أو بيض النمل ، فلا شيء يمنع تصورها قائماتٍ او منحنيات على اي جزء او مسندٍ ناشيء من جدار ففي رأس أي عمود او على قاعدة اي تمثال ، قائمة ، شاخصة هي او متناثرة ، مهتمة في الحالين بشؤون مستقبلها . لذا يمكنك ان تتأمل عبر قناع من المرمر كل لودوميا المائة او الالف سنة الماضية وهي مزدحمة اصنافاً من ناس في زيّ لم يُرَ من قبل . كلهم في ثكنات بلون الباذنجان مثلاً ، وريش تركي على عمائمهم . يمكنك أن تميّز سلفك من اولئك المتحدّرين من عوائل اخرى ، ودّيينّ او معاديين دائنين او مقرضين ، وهم مستمرون في الانشغال بقضاياهم ، ثاراتهم ، زيجات الحب او المال . احياء لودوميا يسكنون بيوت الذين لم يولدوا ليسائلوهم ، الاسئلة يجاب عليها بالصمت ، ودائماً ما يسأل الأحياء عن انفسهم ، لا عن الذين سيأتون . احدهم مهتم بمعرفة هل سيخلف وراءه سمعة واضحة المعالم ، آخر يريد ان ينسى عاره الجميع يريدون ان يتتبعوا خطَّ نتائج أفعالهم ، لكنهم كلما دققوا النظر في الخط المستمر ، كلما قل وضوحه لهم . سكنةُ لودمينا في المستقبل يبدون مثل النقاط ، مثل ذرات تراب تنبثق من اي شيء و قبله أو بعده .

مكتبة الفكر الجديد

لودوميا الذين لم يولدوا لا تتحرك من مكانها مثل مدينة الموتى ، اي إحساس بالأمان في لودميا الاحياء هو انذار . في النهاية تجد افكار زوارها طريقين امامها ، ولا خبر اي الموانىء هي الاكثر كرباً : عليك أن تعتقد بان عدد الذين لم يولدوا اعظم كثيرا من مجموع الاحياء والاموات ، وعلى هذا يكون في كل سُمّ من مسام أية صخرة حشودُ غير مرئيةٍ متكتلين على حافات قمع . كما في الملعب الاغريقي ، ومادام أحفاد لودوميا في كل جيل يتضاعفون . فكل قمع يحتوي على مئاتٍ من الاقماع الاخرىٰ في كل واحدٍ ملايين الاشخاص الذين سيولدون ، يدفعون أعناقهم خارجاً ويفتحون أفواههم لينجوا من الاختناق . وإلا فلودوميا ، ايضاً ، ستختفي ، لا خبر متى ، وسيختفي كل سكنتها معها ، بكلمات اخرىٰ ، ستتواصل الاجيال الى حدّ عدد معينّ ثم تتوقف . بعدها تكون لودوميا الموتىٰ ولودوميا الأحياء مثل مصباحَي الساعة الرملية التي لم تنقلب ، كل ممرٍ بين ميلادٍ وموت هو حبّة رمل تعبر عنق الساعة الرملية ، وهنالك سيولد آخر سكان لودوميا ، آخر حبة تسقط والتي هي الآن اعلى الكوم تنتظر .

سجن والسماء ٣

دُعيَ المنجمون لوضع قواعد لتاسيس پرنثيا فاختاروا المكان واليوم حسب مواقع النجوم ، فرسموا الخطوط المتقاطعة

مكتبة الفكر الجديد

الاول اتجه شرقا نحو طريق الشمس والآخر مثل محور تدور حوله الافلاك . لقد قسموا الخارطة حسب الابراج الاثني عشر ، لذا فكل معبد وكل حارةٍ يتلقيان قوتهما واقدارهما من برجيهما المقربين . هم ثبتّوا على الجدران نقاطاً حيث يجب ان تكون أبواب . تصوروا كيف سيشكل كل باب منها خسوف القمر في الالف سنة القادمة. پرنيثيا ـ التي هيّأوها ـ ستعكس انسجام عقل الطبيعة الثابت ولطف الالهة وهما يشكلان اقدار الناس فيها . وباتباع نتائج المنجمين بدقّة ، شيدت پرنيثيا : ناس مختلفون جاؤوا وسكنوا فيها ، نما أول جيل بين حدرانها . واولاد بلغوا سن الرشد ثم كان لهد اطفال

في شوارع پرنيثيا وميادينها ترىٰ اليوم عرجاً ، أقزاماً حدباً ، رجالاً بُدَناء ، نسوةً ملتحيات . وما هو أسوأ فيها ، لا يُرىٰ . تسمع غرغرة تاتي من السقوف والاعالي ، حيث يخفي الناس هناك اطفالهم ذوي الرؤوس الثلاثة والستة ارجل .

منجمو پرنيثيا يواجههم اختيارٌ صعب ، فهم إما أن يعترفوا بأن كلَّ نتائجهم خطأ وان اشكالهم غير قادرةٍ على أن تصف السماوات ، او ان يكتشفوا من ذلك ان نظام الالهة منعكس تماماً في مدينة المخلوقات الغريبة هذه ..

مدن مستمرة ٣

كل سنة من سنين اسفاري ، أتوقف عند برسپيا وأسكن في النزل نفسه وقد توقّفتُ أول مرّة أتامل الضاحية التي تتكشف

مكتبة الفكر الجديد

عند رفع ستارة النافذة : خندق،جسرٌ ، حائط صغير ، شجرة مَشملةٍ ، حقل ذرةٍ ، حدبة تل صفراء ، سحابة بيضاء ، شكل ممتد من زرقة السماء يشبه ارجوحة البهلوان . تأكدت أوّل مرةٍ من أن لا احد هناك . في السنة الثانية ، وفي حركة بين الاوراق ، امكنني لمح وجهٍ مستدير ممسوح يقضم عرنوص ذرة . بعد سنة من ذلك ، كان هناك ثلاثة منهم على الحائط ، وحين استدرت ، رأيت ستة قاعدين صفّاً وايديهم على ركبهم ، وثمرات من المشملة في صحن . صرت في كل سنة وحالما أدخل الغرفة ، أرفع الستارة ، فأحصي عدداً أكبر من الوجوه :

ستة عشر ، منهم اولئك الذين في الخندق ، تسعة وعشرون ، منهم ستة وجوه استقرت على شجرة المشملة ، سبعة واربعون اضافة الى اولئك الذين في كنّ الدجاج . يبدون متشابهين ، يبدون مهذبين على خدودهم كلف ، يبتسمون لبعضهم شفاه مسودّة من التوت البرّي . ثم رأيت كل الجسر مزدحماً بذوي الوجوه المدورة ، يحتشدون هناك ، بعد ان لم تبق غرفة خالية يدخلون فيها ، انهم يقضمون لبَّ عرانيص الذرة ، ثم ينتهشون اوراقها ثم سنة بعد اخرى ، صرت ارى الضاحية تختفي الخندق ، الشجرة ، رقعة العوسج .. كلها اختفت ، وراء ابتساماتٍ هادئة بين خدود مدوّرة ، يحركون او يعلكون الاشجار . لا يخطر في ذهنك كم من الناس يمكن ان تحتويهم مساحة محدودة مثل ذلك الحقل الصغير للذرة ، وبخاصة إذا جلسوا القرفصاء بلا حراك . لابد انهم أكثر جداً مما يبدون فقد رايت قمة التل مغطاة بزحام متكاثف . والناس الذين على

مكتبة الفكر الجديد

الجسر بدأوا عادة جديدة ، انهم يتسلقون اكتاف بعضهم . نظرتي لا تصل ابعد من ذلك .

أخيرا في هذه السنة ، رفعت الستارة فكشفت النافذة عن مدّ من الوجوه ، من هذه الزاوية الى تلك ، على جميع المستويات ، وفي كل الابعاد ، هي الوجوه المدوّرة ، الساكنة ، المسطحة تماما ، هي كلّ ما يرى ، وعليها ابتسام خفيف وفي وسطهم عدة ايد تمسك باكتاف الذين أمامهم .

الان حتى السماء اختفت ، فعلي إذن مغادرة النافذة . هذا لا يعني ان الحركة سهلة بالنسبة لي . فهناك ستة وعشرون يسكنون معي في غرفتي . وان اسحب قدميّ يعني إزعاج اولئك المتكدسين على ارض الغرفة ، فشققت طريقي بين ركب من هم على الخزانات واولئك الذين اخذوا نوبتهم في النوم على السرير كلهم ناس مهذبون لسوء الحظ .

مدن مخفية ٢

الحياة في رايسا غير سعيدة . الناس يفركون أكفّهم وهم يسيرون في الشوارع ، يلعنون صراخ الاطفال ، ينحنون على الانهر من فوق الاسيجة ويشددون قبضاتهم على معابدهم . في الصباح تستيقظ في هذه المدينة من حلم سيء لتبدأ حلماً سيئاً اخر تدخل في صوى العمل حيث في كل دقيقة تضرب اصبعك بالمطرقة خطأً أو تخزها بالإبرة أو تكون مائلاً على اعمدة

مكتبة الفكر الجديد

التماثيل أو محنياً على سجلات التجار ورجال المال ، او تكون بين صفوف الاقداح الفارغة على المناضد القصديرية لأصحاب مخازن الخمور . في هذه كلها تخفي كل الرؤوس المحنية نظرة عامة متجهمة ، داخل البيوت ، الامر أسوأ ، وما عليك إلا ان تدخل لترى :

في الصيف تضج النوافذ بالمشاجرات والصحون المحطمة . وفي رايسا ، كل دقيقة ينبثق طفل في الشباك ، يضحك وهو يرى كلباً يقفز على ظلّةٍ لينال بعضاً من مُهَلَّبةٍ تسقط من عامل بناء ، يصيح من اعلى السقالة :

«دعني يا عزيزي أغمس فمي فيها .» الصبية الخادم تحت العريشة تحمل صحناً من حساء الراكوت المتبل سعيدة بتقديمه لباني المظلة ، وهو يحتفل الان بانجاز عمله الناجح سيدة عظيمة اشترت مظلة من دانتلا بيضاء لتثبتها حيث تجري سباقات الخيل . هذه السيدة تعشق ضابطاً ابتسم لها مرة وهو يؤدي قفزته الاخيرة . رجل سعيد ، واكثر سعادة منه حصانه وهو يرتفع فوق الموانع ، رأى دراجا يطير في السماء ، حرره من قفصه،رسّام سعيد بانه رسمه ريشة بعد ريشة ، بهذه الالوان نفسها الحمراء والصفراء في وهج تلك الصفحة في كتاب الكون حيث يقول الفيلسوف :

«كذلك في راسيا مدينة الحزن : هنالك يجري خيط غير مرئي يربط كائنا حياً باخر للحظة ثم يوحدهما نسيجاً واحداً ، ثم ينحل النسيج مرة اخرى بين نقطتين متحركتين ، وهو يرسم مقاطع جديدة وعجلة وبهذا تحتوي هذه المدينة غير السعيدة في كل لحظة على مدينة سعيدة دون ان تعلم بوجودها .»

مكتبة الفكر الجديد

اندريا ، شيدت بتفنن بالغ ، حتى ان كل شارع من شوارعها يتبع فلك احد النجوم ، والابنية وأمكنة الحياة الاجتماعية تكرر نظام الابراج ومواقع الكواكب الاكثر سطوعاً : عطارد ، المريخ ، وتقويم المدينة منظم حدّ ان الاعمال والدوائر والاحتفالات نظمت على خارطة تدل على اوقاتها الثابتة : فالنهارات على الارض والليالي في السماء تعكس الواحدة الاخرى .

ومع ان المدينة أخضعت لنظام صارم ، فان الحياة في المدينة تجري بهدوء مثل حركة الاجسام السماوية فهي تسيرها احكام حتمية لا امر من نزوة بشرية .

لكي اثني على اهل اندريا ، اميل الى القول :

انني افهم جيداً كيف تحسّون بانفسكم جزءاً من سماء لا تتغير ، عجلات في آلية ميكانيكية ، يهمكم الا يحدث ادنى تغيير في مدينتكم وعاداتكم ، اندريا هي المدينة التي اعرف بين المدن ، حيث يكون الافضل فيها البقاء في الزمان دون حركة .

نظر كلٌ منهما الى الاخر باستغراب ، «ولكن لماذا ؟ من قال مثل ذلك ؟» واخذوني لزيارة شارعٍ معلق افتتح اخيراً فوق حرج من البامبو ، مسرح ظلٍ يشاد الآن في مكان مخازن البلدية ، انتقلت الى سرادقات المستشفى الاول الذي دمر حين بدأ بعلاج ضحايا آخر طاعون وتماما اثناء تدشين مرسى نهري ، تمثال نطاليس على منحدر .

مكتبة الفكر الجديد

سألت . «وهذه التجديدات ، الا تربك الايقاع السماوي لمدينتكم ؟»

أجابوا : «مدينتنا والسماء يتواصلان في كل شيء حتىٰ ان ادنىٰ تغير في اندريا يقابله تغير بين النجوم» المنجمون بعد كل تغير في اندريا ينظرون في تلسكوباتهم ويسجلون انفجاراً في «المستسعر» او نقطة بعيدة تتحول بانتظام ثابت من اللون البرتقالى الى الاصفر ، انتشارَ سديم ، انحناء لولبياً للمجرة . كلُ تغير يقتضي تغيرات اخرىٰ ، في اندريا كما هو بين الكواكب . المدينة والسماء لا يبقيان ابداً كما هما .

أما عن شخصية سكان اندريا ، فلهم فضيلتان تذكران الثقة بالنفس والحصافة . هم مقتنعون بأن كل تجديد في المدينة له تأثيره على النمط السماوي . فهم قبل اتخاذ اي قرار يفكرون بهذه المخاطرة وبالمزايا التي تنتج عن ذلك لهم وللمدينة وللعوالم .

مدن مستمرة ٤

تعاتبني على قصصي ، كل واحدة تأخذك الى قلب المدينة مباشرة دون ان تخبرك عن الفراغ الذي يفصل مدينة عن اخرىٰ ، مغطاة بالبحار او بحقول الشيلم او بغابات الارز او بالمستنقعات . اخبرك الان بقصة :

في شوارع سيسيليا ، وهي مدينة مشهورة ، التقيت مرة

مكتبة الفكر الجديد

براعي ماعز ، بقود قطيعاً ترن اجراسه بمحاذاة الجدران .
توقف الراعي وسألني : «لتبارك الانسان السماء ، هل تخبرني في اي مدينة نحن ؟»
فصرخت : «ليكن الله معك ، كيف لا تعرف مدينة سيسيليا المعروفة ؟»
اجاب «صبرك عليَّ ، أنا راعٍ جوال ، نضطر أحياناً انا وماعزي ، على المرور عبر مدن لا نعرفها . سلني عن أسماء اراضي الرعي ، انا اعرفها كلَّها : «المرعى بين الجرفين» ، «السفح الاخضر» ، «عشب الظل» .. المدن لا اسماء لها عندي : هي امكنةٌ بلا اوراق ، تفصل مرعى عن مرعىٰ ، وهي امكنة ترتعب منها الماعز ، تتشتت في منعطفات شوارعها ، نتراكض ، كلبي وانا ، لنلمها . في الامكنة غير المأهولة ، كل حجرٍ وكل رقعة عشب يختلطان في عيني بكل حجر ورقعة عشبٍ آخرين . سنون عديدة مرّت منذ ذلك العهد ، عرفت مدناً أكثر من تلك وعبرت قارات . يوماً كنت اسير بمحاذاة صفٍّ من البيوت الاعتيادية ، كنت تائهاً فسألت عابراً :
«يحميك الخالدون ، هل اخبرتني اين نحن ؟» فأجاب : في سيسيليا ، اي حظ سيء ، نحن نتجول في شوارعها ، ماعزي وانا من دهرٍ ، ولم نجد حتى الآن طريقنا .»

عرفته ، رغم لحينه الطويلة البيضاء ، انه راعي الماعز نفسه ، راعي الزمن البعيد ، كانت تتبعه بضع من الماعز التي افتقدت حتىٰ رائحتها ، هزلت فهي جلد وعظم ، كانت تعلك الورق الملقى في صفائح القمامة . صحت : « لايمكن ان يكون

مكتبة الفكر الجديد

هذا ! انا أيضاً دخلت مدينة لا أتذكر متى ، ومذ ذاك استمررتُ ، توغلت أبعد أبعد في شوارعها . لكن كيف تدبرت الوصول الى مدينة قلتَ ، حين كنت في مدينة اخرى ، انها بعيدة جداً عن سيسيليا ، وها انا لم اغادرها بعد ؟»

قال راعي الماعز : «الامكنة اختلطت ، فقد كان مرعى الحطب القصير في يوم من الايام هنا ، وكان هناك ايضا ماعزي الاثل تميز الاعشاب على جزرة المرور .»

محن مخفية ٣

سئلت كاهنة عن طالع مورازيا ، فقالت «ارى مدينتين : مدينة فأر ومدينة سنونو .» وتفسير العرافة الصارمة لذلك هو : مورازيا اليوم ، حيث الكل يركضون خلال ممرات من الرصاص مثل علب الفئران ، الفئران التي تمزق اسنان بعضها القطع التي تتساقط من أسنان الفأر الاعظم شراهة . لكن عصراً جديدا يوشك ان يبدأ ، سوف يطير فيه كل سكان مورازيا مثل عصافير في سماء صيف ، يدعو احدهم الاخر كما في لعبة ، يستعرضون ، اجنحتهم ساكنة ، وهم ينقضّون ، يخلّصون الهواء من كل ما فيه من بقٍ وجرجس .

انه زمن ينتهي فيه عصر الفئران ويبدأ فيه عصر السنونو .»

وفي الحقيقة ، يمكنك القول بان وراء تجهم السلطة الفاروية

مكتبة الفكر الجديد

الضعيفة ، وبين اقل الناس شأناً ، همساً عن استعدادهم للطيران مثل طيران السنونو .
التوجه للهواء بضربة بارعة بالذنب ، ويتنقلون عليه ، ثم وبحافات الاجنحة يحاذون قوس الافق المفتوح .

عدت الى مورازيا بعد سنوات : لبعض الوقت بدا ان نبوءة العرافة تحققت ، العصر القديم مات ودفن ، والجديد في أوجه المدينة ، أكيدٌ ان المدينة تغيّرت ، وربما الى الاحسن . لكن الاجنحة التي رأيتها تتحرك في الجو هي اجنحة ذوي المظلات المريبة التي تُخْفَضُ تحتها اجفان ثقيلة ، هنالك ناسٌ يعتقدون بانهم يطيرون ، وهذا الأمر ناتج من تصوّرهم إمكان الخلاص من الارض فهم يخفقون بمعاطفهم مثل الخفافيش .

يحدث ايضاً وانت تسير بمحاذاة جدران مورازيا التي يسند بعضها بعضاً ، وحين يتضاءل تماماً توقعك ، أن ترىٰ شِقاً يفتح ومدينة جديدة تظهر ، ثم بعد لحظة ، تتلاشىٰ تماما . ربما كان كل شيء يخضع لمعرفتنا أي الكلمات نقول ، اي الافعال ننجز ، وفي اي نظام وايقاع ، والاّ فتحديقة من احدهم ، جواب ، اشارته تكفي . هي كافية لبعضهم لأن يفعل شيئاً من أجل المتعة وحدها ، لإلتذاذه بأن يكون لذةَ وسرور الآخرين : في تلك اللحظة كل الفراغات تغيرت ، كل الارتفاعات ، كل المسافات المدينة تحوّلت واصبحت بلورية ، شفافة كاليعسوب . لكن كل شيء يجب ان يحدث كما لو كان صدفةً ، دون اهتمام بذلك ، دون إصرار على إنك تنجز فعلاً حاسماً ، وان تتذكر بجلاء أن مورازيا ستعود في اية لحظة وقد ارتخىٰ سقفها الحجري ونسيج العنكبوت والغبار فوق الرؤوس .

مكتبة الفكر الجديد

هل اخطات العرافة ؟ لانجزم بذلك فانا افسر الامر هكذا موارزيا تتكون من مدينتين ، مدينة الفئران ومدينة السنونو . كلاهما تتغيران في الزمن لكن علاقاتهما لا تتغير . الثانية توشك ان تحرر نفسها من الاولى .

مدن مستمرة ٥

أن أحدثك عن بنثيسيليا ، عليّ أن أبدأ بوصف مدخل المدينة . لاشك بانك تتصور دائرةً من جدرٍ ترتفع من سهل مغبرّ . حتى تصل ببطء الى بوّابتها التي يحرسها رجال الكمارك ، فتسيل نظرات الريبة من زوايا عيونهم على صرر امتعتك . حتى إذا وصلت المدينة ، رأيت نفسك خارجها

تمرّ تحت الطاق فتجد نفسك فيها تحيط بك كثافتها . ترى كتابة محفورة على صخرها . إن تابعت سطرها الصخري المثلم كشفت لك عن معناها .

إذا كان هذا ما تعتقد به ، فلقد أخطات :

بنثيسيليا تختلف عن ذلك . تتقدم نحوها ساعات ولا تتضح لك سواء كنت في وسطها أو أنك ما تزال خارجها . هي مثل بحيرة ضفافها الخفيضة ضائعة في المستنقعات . لهذا تمتد بنثيسيليا اميالا من حولك ، مدينة مائعة تترجرج في السهل ، ابنيتها باهتة متساندة ظهراً لظهر في حقول رثة بين اسيجة خشبية ومظلات من صفائح مموّجة من حديد .

مكتبة الفكر الجديد

هنا وهناك على جوانب طرقها مجموعات من ابنية ذات واجهات مرتدة قليلاً ، طويلة جداً او واطئة جداً ، مثل مشط مثلم الاسنان تكشف لك ان من ذلك المكان يبدأ اكتظاظ المدينة ولكنك تستمر فترى بدلا مما توقعت فراغات غامضة اخرى ، ثم ضاحية صدئة من ورش عملٍ ومستودعات بضائع ومقبرة ودولاب هواء ومجزرة . ثم تنحدر في شارع مخازنه رثة تتلاشى ما بين بقعٍ في ريف مجذوم .

اذا سألت الناس الذي تلاقيهم :

«اين هي بنثيسيليا ؟» سيرسمون إشارة عريضة ربما كان معناها : «هنا» ، أو «ماتزال بعيدة» ، او «حواليك» . أو «في الإتجاه الآخر» .

وتؤكد سؤالك : «أعني المدينة ؟»

فيقول بعضهم : «نحن نأتي الى هنا كل صباح لنعمل» ، بينما يجيبك آخرون : «نحن نعود الى هنا في الليل لننام .»

وتسألهم : «لكن المدينة حيث يعيش الناس ؟» فيقولون لك : «لابد انها في ذلك الطريق »

ويرفع بعضهم اذرعهم منحرفة الى تجمّع اكمد من سطوح على الافق ، بينما يقول آخرون :

«وراءك اشباحُ رؤوسِ ابراج» .

«إذن ، فأنا قد مررت بها ولم أدركها ؟»

«كلا ، امض قدماً الى أمام .»

وهكذا تستمر تعبر من ضاحية الى ضاحية ، فيحين الوقت لتغادر بنثيسيليا ، تبحث عن طريق يخرج بك منها ، فتجتاز ثانية سلسلة من ضواحٍ متناثرة بقعاً مثل خضاب مرقش .

مكتبة الفكر الجديد

يهبط الليل ، تَضاء النوافذ متقاربة هنا متباعدة هناك وتتخلى عن محاولة فهم هل هناك بنثيسيليا ، يدركها الزائر ويتذكرها ، في كيس ، او في طيَّة بين هذي المختلفات المحيطة بك أم ان بنثيسيليا ليست هي الا ضواحي نفسها ؟

السؤال الذي يبدأ القرض في ذهنك اكثر غموضاً : هل هنالك خارجٌ خارجَ بنثيسيليا ؟ او هل انك اذا تركت المدينة ، ومهما ابتعدت عنها ، ستظل تعبر من أعراف الى اعراف ،

لذا ، لا تفكر في مغادرتها ؟

ضحن سخفية ٤

تكرار الغزو دمّر مدينة ثيودورا عبر قرون تاريخها فما ان يغادر عدوٌ حتى يجمع آخر قواه ليهدد من تبقى من سكانها حينما خلت السماء من النسور ، واجه سكان المدينة انتشار الافاعي وفناء العناكب ترك الذباب يطير اسراباً سوداً ، كما ان الانتصار على النمل الابيض جعل المدينة تحت رحمة الارضة . الانواع المتضاربة في المدينة انهاها الموت فاندثرت . قدرة الناس فيها على شق الدروع والحراشف . على الاطاحة بالاجنحة والريش ، أكسب تيودورا صورة مدينة الانسان المنيعة . هذه الصفة ماتزال تميّزها .

من البداية ولسنين طويلة ، لم يكن مؤكداً ان النصر سينتقل الى آخر نوعٍ مقاتل ضد امتلاك الانسان للمدينة ، وهو

مكتبة الفكر الجديد

الفئران . من كل جيل من اجيال القوارض تخلف البقية الضئيلة التي تنجو نوعاً اسوا يمتنع على المصائد ويقاوم كلَّ انواع السموم . خلال بضعة اسابيع أعيد إسكان خياطي ثيودورا مع حشود من الفئران المنتشرة . اخيراً وفي مذبحة كبيرة ، دحر الجنس البشري ، ببراعاته المتنوعة في القتل ، قوىٰ الحياة الهائلة للأعداء .

المدينة ، وهي مقبرة كبيرة لمملكة الحيوان ، اغلقت ، تم تعقيمها بعد دفن آخر الجثث مع آخر البراغيث وآخر جراثيمها . الانسان اخيراً ، أعاد إقامة نظام العالم الذي اربكه بنفسه . لا يوجد نوع آخر من الاحياء يثير الريبة بعد الآن .

ولكي نتذكر ثيودورا ماكان فيها من الحيوان ، تحتفظ رفوف مكتبتها بمجلدات بوفون ولينايوس . أخيراً هذا الذي صار يعتقد به سكان ثيودورا وقد ابتعدوا عن تصور نهوض الحيوانات القديمة من سباتها . لقد ابعدت الى مناطق نائية واماكن خفية ، ومنذ استقروا على انعدام بتلكم الاحياء ، حيوانات اخرىٰ بدأت تعود الى النور من سراديب المكتبة حيث يحتفظون بالكتب القديمة . كانت تقفز من رؤوس الاعمدة ومن انابيب المجاري وتهبط على اسرة النائمين :

عنقاوات ، كلاب الغريف الصغيرة ، تنانين ، هركوسرفيات ، خطافات ، هيدرات ، وحيدات القرن عظايا البازليسق ... كانت تستعيد امتلاك المدينة .

مكتبة الفكر الجديد

لن اخبركم عن بيرنيس ، المدينة الظالمة ، المتوجة بالشرفات المنقوشة والافاريز وبمعدات مكائن فرم اللحم ، (الرجال المهمومون بالتلميع يرفعون احناكهم فوق الدرابزينات ويتاملون الردهات والسلالم والاروقة ، فيشعرون بالحبس اكثر ، تتضاءل قاماتهم .) بدلاً من ذلك ساخبركم عن بيرنيس الخفية ، مدينة العدل التي تحتفظ بسلعها المعدنية في الحجر ، خلف المخازن وتحت السلالم . تربط شبكة من الاسلاك والانابيب والبكرات والمكانس والموازين ، التي تمتد متشابكة مثل نبات متسلق ، بين عجلات موصلة ببعضها . (تخرج إشارة مكبوتة تنذر : بميكانيكية جديدة ضاغطة تحكم المدينة) .

بدلاً من أن اصف لك احواض السباحة المعطرة حيث يرتاح الظالمون في برنيس وينسجون مكائدهم ببلاغة ظنّانة يتابعون بعيون المالكين اللحم المثير للجواري ، بدلاً من ذلك علي ان اقول لك كيف ان العادلين كانوا حذرين دائماً يتقون تجسس المنافقين ومتابعات الانكشاريين ، ويميزون واحدهم الآخر من طريقة كلامهم ، وبخاصة لفظهم للفوارز والفواصل ، من عاداتهم التي بقيت ثابتة وبريئة ، هم يتجنبون الامزجة المعقدة والعصبية ، ومن طبخهم المقتصد لكن طيب المذاق والذي يمثل عصرا ذهبيا قديماً :

حساء كرفس وفاصوليا مسلوقة ومسحوق الازهار المقلي .

مكتبة الفكر الجديد

من هذه المعلومات يمكن رسم صورة لمستقبل بيرنيس ، تقربك لمعرفة حقيقة المدينة اكثر من أية معلومات اخرىٰ ترد عن المدينة اليوم

عليك ان تحتفظ في ذهنك بما ساقوله لك :

بذرة سوء تختفي في نواة مدينة العدالة ، في استدارتها . بذرة السوء هذه هي : اليقين والكبرياء المتأتيان من انها على صواب انها اكثر عدلاً من العادلين . هذه البذرة تخمرت استحالت مرارة ، منافسة ، استياء ، والرغبة الطبيعية بالثار من الظالمين اتخذت شكل التوق لأن يحلّوا في مواقعهم ، ولأن يفعلوا بهم كما يفعلون . مدينةٌ ظالمة اخرىٰ ، وإن اختلفت عن الاولى ، تحتاز لها مكاناً داخل الغلاف المزدوج لبيرنيس العادلة وبيرنيس الظالمة .

انا إذ اقول هذا ، لا اريد عينيك ان تريا الصورة المشوهة ، لذا الفت نظرك الى فضيلة خاصة بهذه المدينة الظالمة ، وهي تنتشر داخل المدينة العادلة السرية . ذلك هو الصحو الممكن للحب الاول للعدالة ، الحب الذي لم يخضع لقواعد حتى الآن ، استيقاظ الحب المفاجيء هذا يشبه انفتاحاً مثيراً لنوافذ مغلقة . انه حب قادر على تشكيل مدينة اكثر عدالة حتى مما كانت عليه قبل ان تصير وعاءً كبيراً للظلم .

إذا انفذت نظرك في «جرثومة» العدالة الجديدة هذه امكنك ان ترىٰ بقعة صغيرة تنتشر ، انها مثل رغبة تكبر فتدفع ماهو عادل خلال ماهو ظالم ، وربما كان هذا أصل عاصمة عظيمة .

من كلماتي تصل الى نتيجة هي ان بيرنيس الحقيقية إرث مؤقت لمدن مختلفة ، عادلة وغير عادلة على التناوب . انما اريد

مكتبة الفكر الجديد

ان احذرك من شيء آخر :

كل بيرنيسات المستقبل حاضرات الان ملفوفات الواحدة بالاخرى ، مشدودات لبعضهن ، متشابكات ولا انفصال لواحدة منهنّ عن الاخرى .

مكتبة الفكر الجديد

أطلس الخان العظيم يحوي ايضاً خرائط للأراضي الموعودة التي يزورها الفكر والتي لم تكتشف او لم توجد بعد : اطلنطيس الجديدة ، المدينة الفاضلة ، مدينة الشمس ، الاوقيانوسية ، تاموي ، الهارمونيا الجديدة ، لانارك الجديدة وإيكاريا .

سأل قبلاي ماركو : «انت الذي طوّفت تكتشف الدنيا ، والذي رأى علامات ونُذُراً ، هل تقدر أن تخبرني باتجاه أي من المُسْتَقْبَلات تسوقنا الرياح الطيبة ؟»

«الى تلك الموانىء التي لم استطع رسم طريق اليها على الخارطه او اسجل تاريخاً لوصولي اليها . كنت بعض الاوقات احوج ما اكون لإشارة موجزة ، فتحة مضيئة وسط ضاحية معتمة ، لمحة ضوء في الضباب ، حوار اثنين عابرين يلتقيان في الزحام ، وكنت اظن ذلك منطلقاً لي من هناك ، ارى قطعة بعد قطعة ، المدينة الكاملة ، مكونة من قطع مختلطة بالبقية التي انفصلت عنها اخيرا بفجوات ، ومن علامات ترسلها احداها ولا احد يعرف من يتسلمها . اذا اخبرتك ان المدينة التي توصلني اليها رحلتي غير مستمرة في المكان والزمان وانها هي منتشرة الان ، وهي الآن اكثر كثافة ، يجب الا تعتقد بأن البحث عنها يمكن ان يتوقف .. ربما ونحن نتكلم ، هي تنهض منتشرة ضمن حدود مملكته ، ويمكن ان تتبعها ، انما بالطريقة التي قلت .»

في هذا الوقت كان الخان يقلب صفحات الاطلس ، ويرىٰ الى خرائط المدن التي تهددنا في الكوابيس وعندما تحل اللعنات : اينوح ، بابل ، ارض الياه ، بوتوا ، العالم الجديد الشجاع .

قال : انها جميعا غير مجدية ، مادام مكان وصولنا الاخير هو مدينة الجحيم التي يسحبنا التيار فيها الى دوائرها التي تظل تضيق

مكتبة الفكر الجديد

الى الابد .

وقال بولو : «ان جحيم الاحياء ليس شيئاً سيكون، وإذا وجد جحيمٌ ، فهو ذلك الموجود هنا الآن ، الجحيم حيث نعيش كل يوم

والذي نكوّنه حين نكون معاً هنالك طريقتان لتجنب عذابه ، الاولى سهلة للجميع ، ان تتقبل الجحيم وتصبح بعضاً منه ، فلا تراه بعد ذلك . الثانية خطرة ، وتتطلب احتراساً وخشية دائمين : تبحث وتعرف ، في وسط الجحيم ، مَنْ وما هو ليس جحيماً ، ثم تمكنهما من البقاء وتمنحهما مجالاً .

مكتبة الفكر الجديد

الطبعة العربية

دار المأمون للترجمة والنشر

وزارة الثقافة والاعلام

مكتبة
الفكر
الجديد

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٤٠٦) لسنة ١٩٨٧

مكتبة
الفكر
الجديد

هذا واحد من اكثر كتبه جمالاً يلقي بالافكار والتساؤلات والتصورات على كل صفحة تقريبا

كلما عاد ماركوبولو من اسفاره ، يدعوه قبلاي خان ليصف له المدن التي زارها كلاهما ، الفاتح والمكتشف بغيران رؤاهما العالم بالنسبة لقبلاي خان يتسع باستمرار ، بالنسبة لماركوبولو ، الذي راى اكثر هذا العالم ، يضيق باستمرار

ومع ان الخان جعل ماركو يقدم له الكثير عن المدن التي زارها لكي يغذي بها خياله ، فإن كالفينو ، في الحقيقة ، كان يصف مدينة واحدة في هذا الكتاب ، هي البندقية ، ذلك الكوم من التقسخ الذي لاتضاهى فخامته ، والتي ماتزال قائمة ، مظهرا ماديا لقدرة الانسان على خلق شيء كامل من الفوضى .

مع ذلك هي مكان تتكاثر فيه الغربان ويطغى فيه عدد الموتى على الاحياء .....

سجق التابيير الادبي

إنه خطاب قديم عميق لنا ، نحن في هذا العصر كتبه معاصر مهذب شديد الحزن .

المترجم ـ من المقدمة

دار المأمون
Dar Al-Ma'mun

طبع على مطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد

مكتبة الفكر الجديد